البير كامو

أسطورة سيزيف

نقله الى العربية
أنيس زكي حسن



أسطورة سيزيف

البير كامو

أسطورة سيزيف

نقله الى العربية
أنيس زكي حسن

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

إلى : باسكال بيا ــ كامو

آه يا روحي ، لا تطمحي الى الحياة الخالدة ،
ولكن استنفدي حدود الممكن .

بندار ــ ٣ : اناشيد أبوللو

الصفحات التالية تعالج حساسية لا مجدية يراها المرء سائدة في العصر ــ وليس فلسفة لا مجدية لم يعرفها زمننا بعد ، إذا اردنا الدقة . ولهـذا فمن العدل ان نشير ، منذ البداية ، إلى ما تدين به هـذه الصفحات لبعض المفكرين المعاصرين . بل انني لا اقصد الى اخفاء ذلك مطلقاً ، وانما سيراه القارىء مذكوراً ، بالاسماء ، ومعلقاً عليه في هذا الكتاب .

بيد انه من المفيد ان نشير في الوقت نفسه الى أن اللاجدوى ، التي سأتناولها باعتبارها نقطة انطلاق . وبهذا المعنى يمكن القول بان هنالك شيئاً من المؤقتية في تعليقاتي : ولا يستطيع المرء ان يتنبأ بالموقف الذي تقود اليه . سيجد القارىء هنا وصفاً فقـط ، بالمعنى الخالص ، لمرض فكري . وليس هنالك شيء من الميتافيزيك او الاعتقاد بأمر مـا في الوقت الحاضر . وهذه هي الحدود ، والالتزامات الوحيدة في الكتاب . والحق ان بعض التجارب الشخصية هي التي تجعلني أوضح هذا .

المقدمة

اسطورة سيزيف ، بالنسبة لي ، كانت بداية فكرة رحت اتتبعها في كتاب — الثائر — . انها تهدف الى حل مشكلة الانتحـار ، كما يحاول — الثائر — ان يحل مشكلة القتل ، وفي الحالتين ، بدون مساعدة القيم الدائمة التي هي ، ربما مؤقتاً ، غير موجودة او مشوهة في اوروبا اليوم. ان الموضوع الاساسي في — اسطورة سيزيف — هو هذا : من المشروع والضروري التساؤل عما إذا كان للحياة معنى ، وهكذا فمن المشروع ان نواجه مشكلة الانتحار وجهاً لوجـــه . والجواب ، الذي يكمن في ، ويلوح عبر المتناقضات التي تغطيه ، هو هذا : حتى إذا لم يؤمن المرء بالله ، فان الانتحار غير مشروع . ان هذا الكتاب ، الذي ألفته قبل خمس عشرة سنة ، في عام ١٩٤٠ ، خلال الكوارث الفرنسية والاوروبية يبين انه ، حتى ضمن حدود العدمية ، من السهل ايجـاد الوسيلة للمضي إلى ما وراء العدمية ، وقد حاولت في كل الكتب التي الفتها منذ ذلك الحين أن اتتبع هذا الاتجـاه . وبالرغم من ان — اسطورة سيزيف — تتناول المشاكل الفانية ، فان هــــذا الكتاب يلخص نفسه لي باعتباره دعوة سهلة الى العيش والخلق ، حتى وسط الصحراء .

ولهذا فقد كان من المظنون ان في الوسع تلبع هذا الرأي الفلسفي

بسلسلة من المقالات من النوع الذي لم أكف عن كتابته ، تلك المقالات التي هي في بعض الأحيان تكرار لما جاء في كتبي الاخرى . انها كلها ، توضح ، بشكل اكثر غنائية ، ذلك التردد الاساسي بين القبول والرفض الذي هو ، في رأيي ، يعرّف الفنان ومهنته الصعبة . ان وحدة هذا الكتاب ، وارجو ان يكون ذلك واضحاً للقراء كما هـــو واضح لي ، تكمن في التأمل ، البارد حيناً ، الملتهب حيناً آخر ، الذي قد يغرق فيه الفنان لبحث اسبابه في العيش والخلق . وبعد خمس عشرة سنة ، أجد نفسي قد مضيت قدماً من المواقف التي سجلتها هنا ، ولكنني ما أزال مخلصاً ، كما يلوح لي ، للدوافع التي جعلتني اتخذ تلك المواقف . وهذا هو السبب في ان هذا الكتاب ، هو بمعنى معين ، أشد الكتب التي نشرتها ذاتية . وهـذا ايضاً يجعل من الضروري ان يهبه القـــراء تسامحهم وتفهمهم .

باريس ، آذار ١٩٥٥ — البير كامو



التعليل الابجدي

اللاجدوى والانتحار

هنالك مشكلة فلسفية هامة وحيدة ، هي الانتحار . فالحكم بان الحياة تستحق ان تعاش ، يسمو الى منزلة الجواب على السؤال الاساسي في الفلسفة . وكل المسائل الباقية — هل ان للعالم ثلاثة أبعاد أم لا ، هل ان للذهن تسعة أصناف ام اثني عشر صنفاً — تأتي بعد ذلك . فهذه هي لعب ، وعلى المرء أن يجيب أولا . واذا كان صحيحاً ، كما يدعي نيتشه ، ان الفيلسوف ، لكي يستحق احترامنا ، يجب عليه ان يعلم بواسطة الأمثال ، فانت تستطيع ان تقدر اهمية ذلك الجواب ، لانه يسبق عملية التعريف . تلك هي حقائق يمكن للقلب ان يحس بها ومع ذلك فانها تتطلب البحث الرويّ قبل ان تصبح واضحة للذهن .

انني لأسأل نفسي ، كيف استطيع ان احكم بأن هذه المسألة هي

أهم من تلك ، واجيب بأن المرء يحكم بواسطة الفعاليات التي تستلبمها المسألة . ولم أرَ أحداً مات من أجل التفكير في الكينونة . فغاليلو ، الذي عرف حقيقة علمية ذات أهمية عظيمة ، تخلى عنها بكل سهولة في اللحظة التي هددت فيها حياته . وبمعنى من المعاني نجد انه حسنا فعل [1] فلم تكن تلك الحقيقة لتستحق المشنقة ، فكون الارض تدور حول الشمس او الشمس تدور حول الأرض هو من الأمور التي تتصف بأعمق اللا اكتراث . وانها لمسألة لا جدوى فيها أن يقول المرء الحقيقة . ومن الناحية الاخرى ، فانني أجد الكثيرين يموتون لانهم يقررون ان الحياة لا تستحق ان تعاش . وأجد آخرين يذهبون ضحية القتل ، بصورة متناقضة ، لانهم يفعلون ذلك بسبب الأفكار أو الاوهام التي تهبهم سبباً يعيشون من اجله . (فما هو سبب ممتاز للعيش ، هو أيضاً سبب ممتاز للموت) . ولهذا فانني استنتج ان معنى الحياة هو أشد المسائل الحاحاً فكيف نجيب عن تلك المسألة ؟ هنالك طريقتان في التفكير بكل المسائل الجوهرية (وأعني بذلك تلك المسائل التي يكمن فيها خطر الموت او المسائل التي تركز الرغبة في الحياة) : طريقة لاباليس وطريقة دون كيشوت . فالتوازن بين الدليل وبين الغنائية هو وحده الذي يتيح لنا ان نحقق ، في وقت واحد ، العاطفة والوضوح . وفي الموضوع الذي هو في وقت واحد معا ، متواضع ، ومثقل بالعاطفة ، يستطيع المرء ان يقول ان الديالكتيك الذي يتمثل في المعرفة وفي الكلاسيكية يجب ان يفسح مجالا لموقف اكثر تواضعاً ، موقف فكري

---

(١) من وجهة النظر القائلة بالقيمة النسبية للحقيقة. ومن الناحية الاخرى ، من وجهة النظر القائلة بسلوك القوة والرجولة ، نجد ان موقف غاليلو يجعلنا نبتسم ، لضعفه .

مستمد في وقت واحد من الادراك العام والتفهم .

لم يتم بحث الانتحار الا باعتباره ظاهـرة اجتماعية . ولكننا هنا ، بعكس ذلك ، معنيون منذ البداية بالعلاقة بين التفكير الفردي وبين الانتحار . فمثل هذا العمل يجري اعداده ضمن صمت القلب ، كالعمل الفني العظيم . بل ان الانسان نفسه يجهله . وفي احـدى الأمسيات ، يضغط على الزناد ، أو يقفز . وقد علمت عن مشرف على بناء العمارات كان قد انتحر ، لأنه فقد ابنته قبل خمس سنوات ، وانه كان قد تغير كثيراً منذ ذلك الحين ، وان تلك التجربة كانت قد « هدمته » . ولا يمكننا ان نتصور كلمة ادق من هذه . فالبدء بالتفكير هو البدء بالتهدم وليس للمجتمع الا صلات قليـــلة بتلك البدايات . الدودة هي في قلب الانسان ، وعلينا ان نفتش عنها هناك . وعلى المرء ان يتتبع ويتفهم تلك اللعبة القاتلة التي تقود من الوضوح في وجه الوجود الى الفرار من الضياء .

هنالك أسباب كثيرة للانتحار ، وبصورة عامة نجد ان اوضح هذه الاسباب ليس أقواها . فنادراً ما يتم ارتكاب الانتحار بعد تأمل (ومع ذلك فلا يمكننا ان نستبعد هذه الفرضية .) وليس في الوسع ، غالباً التحقق مما يبعد الكارثة . الصحف كثيراً ما تتحدث عن — التعازي الشخصية — أو عن — المرض الذي لا يرجى شفاؤه — . وهذه تفسيرات مقبولة . ولكن على المرء ان يعرف ما اذا لم يكن صديق ذلك الشخص اليائس قد خاطبه في ذلك النهار نفسه بلا اكتراث هو المذنب . لان ذلك يكفي للتعجيل بكل الاحقاد ، والسأم ، التي ما تزال معلقة .[1]

(١) دعنا لا نضيع هذه الفرصة لنشير الى الصفة النسبية لهذا البحث ، فالانتحار يمكن ان يعزى لاسباب مشرفة اشد كانتحار الاحتجاج السياسي ، كما كانوا يسمونه ، اثناء الثورة الصينية.

بيد انه اذا صعب تعيين اللحظة المضبوطة ، الخطوة الدقيقة حين يكون الذهن قد اختار الموت ، فمن السهل استنتاج النتائج التي يشتمل عليها الفعل ، من الفعل نفسه . فبمعنى من المعاني ، وكما هو الامر في روايات الرعب ، يرقى قَتْلُكَ لنفسك الى منزلة الاعتراف . انه الاعتراف بان الحياة كثيرة عليك ، او بانك لا تفهمها . دعنا لا نذهب بعيداً في سرد هذه الاستنتاجات ، ولنعد الى كلمات الحياة اليومية . ان ذلك هو مجرد اعتراف بان – ذلك لا يستحق العناء – . فالعيش ، بالطبع ، ليس سهلا . فانت تستمر على إداء الحركة التي يأمر بها الوجود لاسباب عديدة ، اولها العادة . والموت طوعاً يتضمن انك قد ادركت ، حتى غريزياً ، صفة تلك العادة المضحكة ، وعدم وجود اي سبب عميق للعيش ، الصفة اللاعاقلة لذلك الدأب اليومي ، ولا جدوى العذاب .

فما هو ، اذن ، ذلك الشعور الذي لا يوصف ، والذي يحرم الذهن من النوم الضروري للعيش ؟ ان العالم الذي يمكن تفسيره حتى ولو بالاسباب الرديئة هو عالم مألوف . ولكن ، من الناحية الأخرى ، نجد ان الانسان يحس بالغربة في كون يتجرد فجأة من الاوهام والضوضاء ، ونفيه هذا هو بلا علاج ما دام قد حرم من ذكريات وطن مضيع ، او من أمل ارض موعودة . وهذا الطلاق بين الانسان وحياته ، الممثل ومشهده ، هو بالضبط الشعور باللاجدوى . ولما كان كل الناس الاصحاء قد فكروا في انتحارهم ، فيمكننا ان نرى ، بدون ايضاح آخر ، ان هنالك صلة مباشرة بين هذا الشعور باللاجدوى وبين الحنين الى الموت .

وموضوع هـذا الكتاب هو بالضبط هذه العلاقـة بين الـلاجدوى والانتحار والدرجة الدقيقة التي يكون بها الانتحار حلاً للاجـدوى . ويمكن الاخذ بالمبدأ القائـل بان الانسان الذي لا يخـاتل ولا يخدع ، يعتمد على ما يظنه صحيحاً في تقرير فعاليته . ولهذا فان الاعتقاد بلا جدوى الوجود يجب ان يقرر موقفه . ومن المشروع التساؤل ، بوضوح وبدون أي شجن زائف ، عما اذا كان استنتاج هـذه الاهمية يتطلب التخلي بالسرعة الممكنة عن الظرف الذي يمكن ادراكه . انني أتحدث ، بالطبـع ، عن الناس الذين يميلون إلى الاتفاق مع أنفسهم .

فاذا اوضحنا هذه المشكلة ، فانها قد تلوح بسيطـة ، وغير قابلة للحل . ولكن قد افتـرض خطأ ان الاسئلة البسيطة تعني اجوبة لا تقل عنها بساطة ، وان الدليل يشتمل على الدليل . فنظرياً ، وبعكس وجه المسألة ، تماماً كما ينتحر المرء او لا ينتحر ، يلوح ان هنالك حلين فلسفيين فقط ، فاما نعم ، او لا . وهذا سيكون امراً سهلاً جداً . ولكننا يجب ان نفسح مجالاً لاولئك الذين ، بـدون ان يستنتجوا ، يستمرون على التساؤل . وهنا أجد نفسي ألجـأ إلى الاشـارة الساخرة قليلاً : هؤلاء هم الاغلبية . وانني لألاحظ ايضاً ان اولئك الذين يكون جوابهم – لا – يتصرفون وكأنهم يقولون – نعم – . والحق انني ، اذا قبلت مقياس نيتشه ، أستطيـع أن أقول انهم يفكرون – نعم – بهذه الطريقة او بتلك . ومن الناحية الاخرى ، فغالباً ما يحدث ان اولئك الذين ارتكبوا الانتحار كانوا واثقين من معنى الحياة . وهذه المتناقضات ثابتة . ومن الممكن ايضاً القول بانهم لم يهتموا قط كاهتمامهم بهذه النقطة التي يكون المنطق فيها ، بالعكس ، مرغوباً . انه لمن الاشياء العادية

ان نقارن النظريات الفلسفية بتصرفات اولئك الذين يبشرون بتلك النظريات . ولكننا يجب ان نذكر اننا لا نجد بين المفكرين الذين لم يروا في الحياة اي معنى مفكراً واحداً ، عدا كيريلوف [1] في عالم الادب وبيريغرينوس المولود من الاسطورة [2] ، وجول ليكوييه في عالم الافتراض، أقر منطقه الى حد رفض تلك الحياة . وكثيراً ما يذكر اسم شوبنهاور لاثارة السخرية ، لأنه امتدح الانتحار بينما كان يجلس الى مائدة بديعة . ولكن هذا ليس من المواضيع التي تحتمل السخرية . وان هذه الطريقة في عدم بذل الاهتمام في بحث المأساة قد لا يحزن الى هذا الحد ، ولكنها تقرر حكماً على انسان .

ترى هل ان علينا ، بمواجهة مثل هذه المتناقضات والغموض ، ان نستنتج انه ليست هنالك علاقة بين الرأي الذي تحمله المرء عن الحياة والفعل الذي يرتكبه المرء لمغادرتها ؟ دعنا لا نبالغ في هذا المجال . فهنالك في تعلق الانسان بالحياة شيء أقوى من كل شرور العالم . وحكم الجسم هو بقوة حكم العقل ، والجسم ينكمش من الإبادة . ونحن نتعود على العيش قبل ان نحصل على عادة التفكير . وفي هذا السباق الذي يقربنا يومياً من الموت تكون للجسد اسبقيته التي لا يمكن ان ينالها الاصلاح . وباختصار ، فان جوهر ذلك التناقض يكمن فيما سأسميه فعل

---

(١) كيريلوف — بطل دوستويفسكي الذي يريد ان ينتحر فيدفع نفسه تحت تصرف جماعة ثورية تستغله في اعمال الاغتيال — المترجم .

(٢) لقد سمعت بوجود مقلد لبيريغرينوس ، وهو من كتاب ما بعد الحرب ، انتحر حالما انهى كتابه الاول ، لكي يجتذب الانتباه الى كتابه . وقد ظفر بذلك حقاً ، ولكن الكتاب اعتبر سيئاً .

التضليل ، لانه ، في نفس الوقت ، اقل واكثر من التحول بالمعنى الباسكالي والتضليل هو اللعبة التي لا تتغير . وفعل التضليل النموذجي ، التخلص القتال الذي يؤلف الفكرة الثالثة في هذا الكتاب ، هو الامل ، الامل في حياة اخرى ، يجب ان تكـــون من — استحقاق — المرء ، او خدعة اولئك الذين يعيشون ، لا للحيـــاة نفسها ، وإنما لفكرة ما ، عظيمة ، ستفوق الحياة ، تنقيها ، تعطيها معنى ، وتفضحها .

وهكذا يؤدي كل شيء الى نشر الارتباك . فحتى الآن ، ولم يكن ذلك بالجهد الضائع تلاعب الناس بالكلمات وتظاهروا بان انكار المعنى على الحياة يؤدي بالضرورة الى اعلان انها لا تستحق ان تعاش . والحق انه ليس هنالك مقياس ضروري عام بين هذين الرأيين . وعلى المرء فقط أن يرفض الانخداع بالارتباكات ، والانفصالات ، والامور غير المنسجمة التي أشرت اليها . على المرء ان ينحي كل شيء جانباً ويتجه مباشرة الى المشكلة الحقيقية . ان المرء ينتحر لأن الحياة لا تستحق ان تعـاش ، وتلك هي حقيقة اكيدة — ولكنها غير مثمرة لأنها حقيقة عـــادية . ولكن هل تصدر اهانة الوجود تلك — ذلك الانكار التام الذي تغرق فيه الحياة — من انها بلا معنى ؟ وهل ان لا جدوى الوجود تتطلب من المرء ان يفر منه عبر الامل او الانتحار — هذا هو ما يجب توضيحه وتتبعه وتبسيطه في الوقت الذي يتم فيه استبعـــاد الامور الاخرى ، بصورة خارجـة عن كل طرق التفكير وممـارسات الذهن الحر . وليس هناك مكان في هذا البحث وهذا الانفصال لظلال المعنى والمتناقضـــات وسايكولوجية الذهن الموضوعي التي يستطيـع ادخالها على كل المشاكل . ان هذه المشكلة ، ببساطة ، تستدعي التفكير اللاعادل — بعبارة أخرى ،

التفكير المنطقي . وهـذا ليس سهلاً . من السهل دائماً ان يكون المرء منطقياً ، ولكن من الصعب تقريباً ان يكون المرء منطقياً حتى النهـاية المرة . ان اولئك الذين يموتون بأيديهم يتبعون ، بالنتيجـــة ، ميولهم العاطفية الى نهاياتها . والتأمل في الانتحار يعطيني الفرصة لاثارة المشكلة الوحيـدة التي تهمني : هل هنالك منطق عنــــد مرحلة الموت ؟ لست استطيع ان اعرف ما لم أتتبـع ، بدون أية انفعالات حمقاء وعلى ضوء الدليل فقط ، التعليل الذي اقترح مصادره هنا . هذا هو ما اسميـــه التعليل اللاعجدي . ولقد بدأ مثل هذا التعليل الكثيرون . ولست أعرف الآن ما إذا كانوا قد التزموا به أم لا .

حين يستغرب كارل ياسبرز ، موحياً باستحالة تشكيل العالم كوحدة، قائلاً : ان هذه الحدود تقودني الى نفسي ، حيث لا استطيع بعد أن أنسحب وراء وجهة نظر موضوعية امثلها وحسب ، وحيث لا أستطيع انا نفسي ، ولا وجود الآخرين ، ان يصبح موضوعاً بالنسبة لي ، فانه يثير ، بعد ان فعل ذلك الكثيرون مسألة تلك الصحـاري الخالية من الماء ، حيث يصل الفكر الى حدوده . فعل ذلك الكثيرون حقـــاً ، ولكن الى اية درجة كانوا متلهفين الى الخروج من تلك الحدود : ففي مفترق الطرق ذاك ، حيث يتردد الفكر ، كان قد وصل الكثيرون ، الكثيرون حتى من العاديين . وحينئذٍ تخلوا عن أعز الاشياء بالنسبـــة اليهم ، حياتهم . وتخلى آخرون ، من أمراء الفكر ، عن مثل ذلك ، ولكنهم بدأوا انتحار أفكارهم في أشد ثوراتها نقاء . المجهود الحقيقي هو في البقاء هنالك ، بقدر ما يكون ذلك ممكناً ، وتفحص الحياة الراكدة في تلك المناطق البعيدة . ان الاصرار وحدّة الادراك يستطيعان ان

يرقبا هذا العرض البشري الذي تتحدث فيه اللاجدوى والامل والموت. ويستطيع الذهن عندئذ ان يحلل أشكال تلك الرقصات البدائية ، مع براعتها ، قبل ان يوضحها ويعيشها بنفسه .

الاسوار اللامحدية :

المشاعر العميقة ، كالاعمال العظيمة ، تعني دائماً اكثر ما تدرك قوله . والانتظام في دافع او نفور نفس يجـابه ثانية في عادات الفعاليـة أو التفكير ، ويعاد توليده في نتائج لا تعرف النفس شيئاً عنها . والمشاعر العظيمة تأخذ معها كونها ، رائعاً او تعساً . انها تضيء باحتدامها عالماً استثنائياً تستطيع فيه ان تدرك جوها . وهنـالك كون من الغيرة ، والطموح والانانية أو الكرم . كون – بعبارة اخرى ، ميتافيزيكيا ، وموقف ذهني . وما ينطبق على المشاعر التي خصصناها الآن ينطبق اكثر على الانفعالات التي هي اساسياً في مثل اللامحدودية ، وفي الوقت نفسه في غموض وفي – وضوح – ، وفي بعد و – حضور – تلك التي تثيرها اللاجدوى او يثيرها الجمـال . وفي اية زاوية من زوايا الشارع يمكن للاجدوى ان تصفع اي انسان على وجهه . وهي ، في عريهـا المقلق ، وفي ضوئها بدون بريق ، مضللة . ولكن تلك الصعوبة نفسها تستحق التأمل . ولعله من الصحيح ان الانسان يظل غير معروف أبداً بالنسبة لنا ، وان فيه شيئاً يغيب عن ادراكنا ، شيئاً لا يمكن تقليصه لنفهمه . ولكنني عملياً اعرف الناس واميزهم بسلوكهم ، بمجموع افعالهم ، بالنتائج التي يتركها وجودهم في الحيـاة . وكذلك هي كل تلك المشاعر اللاعاقلة التي لا تفسح مجالاً للتحليل . انني استطيع ان اعرفها عملياً ،

بان اجمع معاً مجموع نتائجها في مجال الادراك ، بان اقبض عليها ، والاحظ كل مظاهرها ، وبان أضع خطوط كونها . لا شك في انه من الواضح انني بالرغم من رؤيتي للمثل نفسه مائة مرة ، لا استطيع ان اعرفه شخصياً بصورة افضل لذلك السبب . الا انني اذا جمعت الابطال الذين مثلهم ، وإذا قلت انني اعرفه افضل عند الشخصية المائة ، فان ذلك سيدخل الشعور باعتباره محتوياً على حقيقة ، على شيء من الحقيقة . لان هذا التعارض الواضح هو ايضاً امثولة . انه يعظ بشيء ، وهذا الشيء هو ان الانسان يمرّف نفسه بانخداعه ، تماماً كما يفعل ذلك ايضاً بحوافزه المخلصة . هناك اذن مفتاح أوطأ للمشاعر ، لا يمكن الوصول اليه في القلب ، ولكنه يتضح جزئياً عبر الافعال التي تعنيها المشاعر والمواقف الذهنية التي تأخذها . ويتضح انني بهذه الطريقة اقوم بتعريف طريقة . ولكن من الواضح ايضاً ان تلك الطريقة هي من التحليل وليست من المعرفة . لان الطرق تتضمن الميتافيزيكيات ، وهي تكشف بصورة غير مدركة استنتاجات غالباً ما تدعي بانها لم تعرفها بعد . وهكذا فان الصفحات الأخيرة من كتاب ما ، موجودة مقدماً في الصفحات الاولى . ومثل هذه الصلة حتمية . والطريقة المعرفة هنا تدين للشعور القائل بان المعرفة الحقيقية مستحيلة . وإنما يمكن تعداد المظاهر ، فيدخل الجو في الشعور .

ربما سيكون في وسعنا ان نقبض على ذلك الشعور المضلل باللاجدوى في العوالم المختلفة ، والمتصلة اتصالاً وثيقاً ، والخاصة بالادراك ، بفن العيش ، او بالفن نفسه . وجو اللاجدوى هو في البداية . والنهاية هي الكون اللاجدي وذلك الموقف الذهني الذي ينير العالم بالوانه الحقيقية

لاظهار المظهر المتميز الثابت الذي عرفه ذلك الموقف في تلك النهاية .

ان لكل الافعال العظيمة والافكار العظيمة بدايات مضحكة . وغالباً ما تولد الأعمال العظيمة في زاوية الشارع او في الابواب الدوارة في مطعم وكذلك هو الأمر مع اللاجدوى . والعالم اللاجدي يأخذ نبله ، اكثر من العوالم الاخرى ، من ذلك المولد اللاجدي . وفي ظروف معينة ، قد يكون الجواب - بلا شيء - حين يسأل الأنسان عما يفكر فيه ، ادعاء . واولئك الذين يتمتعون بالحب يعرفون ذلك جيداً . ولكن إذا كان الجواب صادقاً ، اذا كان يرمز الى تلك الوضعية الغريبة في النفس حين يصبح الخواء بليغاً ، حين تتحطم سلسلة الحركات اليومية ، حين يفتش القلب عبثاً عن الرابطة التي تربطه ثانية ، فان ذلك يشبه العلامة الاولى من علامات اللاجدوى .

فيحدث ان مشاهد المسرح تتهدم . النهوض ، الباص ، أربع ساعات في الدائرة أو المصنع ، وجبة الطعام ، الباص ، اربع ساعات من العمل ، وجبة الطعام ، النوم ، والاثنين ، الثلاثاء ، الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت ، طبقاً للنسق نفسه - من الممكن السير في هذه الطريق بسهولة دائماً . ولكن في يوم من الأيام تنشأ - لماذا - ويبدأ كل شيء من ذلك الضجر بالأصطباغ بالدهشة . « يبدأ » هذا هو المهم . فالضجر يأتي في نهاية أفعال الحياة الميكانيكية ، ولكنه في الوقت نفسه يفتتح حافز الادراك ويثير ما يتبع ذلك . وما يتبع ذلك هو العودة التدريجية الى السلطة أو ان يكون ذلك اليقظة المعرقة . ويأتي بعد اليقظة ، في الوقت المناسب ، ينتج من ذلك : الأنتحار ، أو الشفاء .

والضجر يحتوي في نفسه على شيء يبعث على الغثيان . وهنا يجب علي ان اقرر ان ذلك امر طيب . لان كل شيء يبدأ عبر الادراك ، ولا شيء يستحق اي اهتمام الا عبر الادراك . وليس هنالك شيء من الاصالة في ملاحظاتي هذه ، ولكنها واضحة ، وهذا يكفي الان ، إنها كشف تخطيطي لاصول اللاجدوى . فان مجرد – القلق – موجود في قلب كل شيء .

وهكذا ، وخلال كل يوم من أيام الحياة العادية ، يحملنا الزمن . ولكن تأتي لحظة يكون علينا نحن ان نحمل الزمن فيها . اننا نعيش على المستقبل : – غداً – ، – بعد ذلك – ، – حين تكون قد بدأت – ، – ستفهم حين تكبر – . ومثل هذه الأمور رائعة ، لأننا على كل حال ، نجد ان المسألة هي مسألة موت . ولكن يأتي يوم يلاحظ فيه الانسان أو يقول أنه في الثلاثين . وهكذا فهو يبين كونه شاباً ، ولكنه في الوقت نفسه يبين نفسه بعلاقتها بالزمن . انه يأخذ مكانه فيه . وهو يقر بانه يقف في نقطة معينة في قوس يعترف بان عليه ان يستمر فيه الى نهايته . انه يخص الزمن ، وبالرعب الذي يقبض عليه ، يدرك اسوأ اعدائه ، غداً ، انه يحن الى الغد ، بينما كان عليه ان يرفضه . وثورة الجسد هذه هي اللاجدوى . [1]

خطوة أخرى ، ثم ترحف الغرابة : في رؤية ان العالم – كثيف –

---

١) ولكن ليس بالمعنى الدقيق ، فليس هذا تعريفاً ، وانما هو تعداد للمشاعر التي تفسح مجالا للاجدوى . ومع ذلك فحين ننتهي من هذا الاحصاء ، نجد ان اللاجدوى لم تنته .

وفي تقدير درجة غربة وبعد حجر ما عنا ، والتركيز التي تنفينا بـه الطبيعة أو المنظر . وفي قلب كل جمال ، يكمن شيء لا بشري ، وهذه التلال ، ونعومة السماء ، وخط تلك الاشجار في هذه اللحظة بالذات تفقد كلها المعنى المضلل الذي كنا نلبسها اياه ، وتصبح أشد بعداً عنا من الفردوس المفقود . ويواجهنا عداء العالم عبر آلاف السنين ، ونكف لحظة عن فهم ذلك لاننا لم نعرف فيه عبر القرون غير الصور والاشكال التي كنا نعزوها اليه من قبل ، ولأننا منذ ذلك الحين فقدنا القوة على الافادة من تلك الوسيلة . وهكذا يضللنا العالم لانه يصبح هو نفسه ثانية . وتصبح تلك المشاهد المسرحية المقنعة بقناع العادة مرة اخرى هي نفسها ، ويبتعد ذلك عنا تماماً كما يحدث ان تأتي ايام نرى فيها خلف الوجه المألوف للمرأة التي احببناها شهوراً أو أعواماً طويلة شيئاً غريباً ، ثم قد نشتهي فجأة ما يتركنا وحيدين هكذا . ولكن الوقت لم يحن بعد . وهنالك شيء واحد فقط : تلك الكثافة والغرابة في العالم هي اللاجدوى.

والبشر ايضاً يحتفظون في انفسهم باللابشرية . ففي لحظات معينة من الوضوح والمظهر الميكانيكي لحركاتهم ، تجعل تلك الحركات الخرساء السخيفة التي لا معنى لها كل شيء يحيط بهم يتصف بتلك السخافة . رجل يتحدث في التلفون وراء حاجز زجاجي . انت لا تستطيع ان تسمعه ، ولكنك ترى منظره الصامت غير المفهوم : وتتساءل : لماذا هو حي ؟ فهذا وهذا – الغثيان – كما يسميه احد الكتاب اليوم [١] ، هو أيضاً اللاجدوى . وكذلك فان الغريب الذي يأتي احياناً لمواجهتنا في المرآة ،

---

١) يقصد جان بول سارتر – المترجم .

الشقيق المألوف ، ومع ذلك ، المفزع ، الذي نراه في صورنا الفوتوغرافية هو أيضاً اللاجدوى .

آتي أخيراً على الموت ، والموقف الذي نقفه منه . وقد قيل كل شيء بهذا الصدد ، ومن المناسب فقط ان نتجنب الشجن . ومع ذلك فلن يندهش المرء جداً من ان الجميع يعيشون وكأن احداً منهم لم – يعرف – شيئاً عن الموت . وهذا هو لانه ليس هنالك في الواقع تجربة للموت . واذا اردنا الدقة فلا شيء هنالك قد تمت تجربته ، وانما هنالك ما عشناه، وجعلناه مدركاً . وهنا لا يمكن التحدث عن تجربة موت الآخرين . انه بديل ووهم وهو لا يقنعنا مطلقاً . ذلك الاعتقاد الكئيب لا يمكن ان يكون مقنعاً . والرعب يصدر في الحقيقة من المظهر الحسابي للحادثة . واذا أرعبنا الزمن فذلك لانه يصنع المشكلة، ويأتي الحل بعد ذلك . وسيتم اثبات ما هو عكس كل الخطب الجميلة عن الروح ، بصورة مقنعة ، على الاقل لفترة . لقد اختفت الروح من هذا الجسد الراكد الذي لا تترك فيه الصفعة أثراً . وهذا المظهر البدائي التعريفي للمغامرة يؤلف الشعور اللاجدي . وفي ضوء ذلك المصير القاتل تتضح لا جدوى ذلك الشعور . وليس هنالك عرف خلقي أو مجهود يمكن تبريره نظرياً أمام الحسابات القاسية التي تقرر ظروفنا .

دعني اكرر : لقد قيل كل هذا . وأنا هنا أحصر بحثي باجراء تصنيف سريع وبالاشارة الى هذه الأفكار الواضحة . انها تملأ كل الآداب والفلسفات ، ويستمد الحديث اليومي أفكاره منها ، ولا حاجة هنالك لاعادة اختراعها . ولكن من الضروري التأكد من هذه الحقائق لكي

يكون في وسعنا ان نوجه الأسئلة لانفسنا بعـــد ذلك بشأن المسألة الموجودة منذ البداية . انني لست مهتماً – دعني اكرر مرة اخرى – بالاكتشافات اللاعجدية كاهتمامي بنتائجها . فاذا تأكـــد المرء من هـذه الحقائق ، فماذا يستنتج ؟ والى أي مدى سيستطيع التخلص من اللاشيء ؟ وهل يموت المرء طوعـاً ، أو يأمل ، بالرغم من كل شيء ؟ قبـــل كل شيء ، من الضروري ان نضع تلك القائمة السريعـة ذاتها على مستوى الادراك .

* * *

ان خطوة الذهن الاولى هي تميـيز الصحيح من الزائف . وعلى كل حال ، فحالما يتأمل الفكر في نفسه فانه يكتشف التناقض اولاً . ولا جدوى في محاولة الاقناع في هذه المسألة . فلم يعط احـد عبر القرون تعبيراً اوضح وابدع للمسألة من تعبير أرسطو : – ان النتيجة المسخفة دائماً ، التي تنتج من هذه الآراء ، هي انها تدمر نفسها بنفسها . لان بيان ان كل شيء هو حقيقي هو بيان حقيقية البيان المعاكس ، وبالتالي زيف افتراضنا نحن (لأن البيان المعاكس لا يقر بأنه يمكن ان يكون صحيحاً) . واذا قال احد ان كل شيء هو زائف فان ذلك البيـــان نفسه زائف . اذا أعلنا ان البيان المعاكس لبياننا هو الوحيـد الزائف او ان بياننا نحن هو الوحيد غير الزائف ، فاننا مع ذلك مضطرون الى الاقرار بعدد لا نهاية له من الاحكام الحقيقية او الزائفة . لان من يعبر عن بيان حقيقي يعلن في الوقت نفسه انه صحيح ، وهكذا الى مـــا لا نهاية ...

ان هذه الحلقة الشريرة ليست الا الاولى في سلسلة يجد الذهن الذي

يدرس نفسه انه يضيع فيها وسط دوامة مدوخة . فبساطة هذه التناقضات تجعلها غير قابلة للتقليص . ومهما يكن اللعب بالكلمات ، وبهلوانيات المنطق ، فان فهم هذا ، هو قبل كل شيء آخر ، توحيده. واعمق رغبات الذهن ، حتى في أبسط عملياته ، توازي شعور الانسان، ذلك الشعور غير المدرك ، امام كونه : انها الاصرار على المألوف ، والشهوة الى الوضوح . وفهم العالم هو بالنسبة للانسان تقليصه الى البشري ، وختمه بختمه . وكون القطة هو ليس كون النمل . وليس هنالك معنى للحقيقة القائلة بأن – الفكر كله متحول حسب الاجناس –. وكذلك فان الذهن الذي يهدف الى فهم الواقع يستطيع ان يعتبر نفسه قانعاً فقط بتقليصه الى مصطلحات الفكر . واذا ادرك الانسان ان الكون مثله يستطيع ان يحب ويتعذب فانه سيرضى . واذا اكتشف الفكر في التماعات مرآة الظواهر الباهتة علاقات ابدية قادرة على تلخيص تلك الظواهر وتلخيص ذاتها في مبدأ واحد ، فسنجد غبطة عقلية لن تكون الى جانبها اسطورة المباركين الا تقليداً مضحكاً . فذلك الحنين الى الوحدة وتلك الشهوة الى المطلق يوضحان الحافز الاساسي في الدراما البشرية . ولكن حقيقة وجود ذلك الحنين لا تعني انه سيتم ارضاؤه في الحال . لأننا اذا بينّا مع بارمينيدس حقيقة الواحد (مهما كان هذا الواحد) ، مالثين الثغرة التي تفصل بين الرغبة والغلبة ، فاننا سنقع في التناقض المضحك ، تناقض عقل يبين الوحدة التامة ويثبت ببيانه نفسه اختلافاً فيه هو ، وكذلك التنوع الذي ادعى حله . هذه الحلقة الشريرة الأخرى تكفي لخنق آمالنا .

هذه هي حقائق عادية ايضاً . وسأكرر مرة اخرى انها لا تهم بحد

ذاتها ، وانما بالنتائج التي يمكن استنتاجها منها . وانا اعرف حقيقة عادية اخرى ، وهي تخبرني بأن الإنسان فانٍ . ولكن المرء يستطيع مع ذلك ان يحصي العقول التي خرجت بالاستنتاجات المتطرفة منها . ومن الضروري اعتبار الحلقة المفقودة دائماً بين ما نتصور اننا نعرفه وبين ما نعرفه بالفعل ، بين القبول العملي والجهل المدعى به والذي يسمح لنا بان نعيش مع الافكار التي ، اذا وضعناها موضع الاختبار حقاً فانها يجب ان تقلق حياتنا كلها ، من الضروري اعتبار تلك الحلقة المفقودة المسألة الدائمة التي يشير اليها هذا البحث . فبمواجهة هذا التناقض الذهني الذي يمكن حله سندرك بصورة كاملة تلك العزلة التي تفصلنا عما نخلفه . وما دام الذهن صامتاً في عالم آماله الراكد ، فان كل شيء يجري تأمله وتنظيمه في وحدة حنينه . ولكن بحركته الاولى ، يتهاوى هذا العالم ويتهدم : ويظهر أمام الفهم عدد لا نهاية له من الشظايا البراقة . يجب علينا اليأس من امكانية اعادة بناء السطح المألوف الهادىء الذي يمكن ان يهبنا راحة القلب . فبعد كل هذه القرون من التساؤل ، وكل هذه الامثلة على ما قام به المفكرون من تنازل عن الحياة ، نـدرك جيداً ان هذا ينطبق على كل معرفتنا . فباستثناء المعللين المحترفين ، صار الناس اليوم ييأسون من المعرفة الحقيقية . ولو كان السجل الوحيـد ذو المغزى ، للفكر البشري ، سيكتب ، فانـه يجب ان يكون تاريخ اسفه المتعـاقب ولا قدرته .

عمَّن ، وعماذا يا ترى ، أستطيع ان اقول حقاً : — أعرفه ! — انني استطيع ان اشعر بهذا القلب بيني ، واستطيع أن احكم بانه موجود. استطيع ان المس هذا العالم واحكم كذلك بأنه موجود . وهنا تنتهي كل

المعرفة ، وما يتبقى هو تركيب . لانني اذا حاولت ان اقبض على هذه النفس التي اشعر بأنني متأكد منها ، واذا حاولت ان اعرفها والخصها، فانها ليست غير الماء الذي ينساب من بين اصابعي . استطيع ان الخص كل المظاهر التي تستطيع ان تأخذها واحداً واحداً ، وكل المظاهر التي تعزى اليها ، هذه النشأة ، وذلك الاصل ، تلك الحماسة وذلك الصمت ، ذلك النبل وتلك الحقارة . ولكننا لا نستطيع ان نجمع المظاهر . وذلك القلب الذي هو قلبي ، سيظل أبداً غير معروف بالنسبة لي . وبين اليقين الذي أراه في وجودي والمحتوى الذي اريد ان أعطيه لليقين ، ثغرة لن تملأ قط . وسأظل أبداً غريباً عن نفسي . وهنالك في علم النفس ، كما في المنطق ، حقائق ، ولكن ليست هنالك حقيقة . اما قول سقراط - اعرف نفسك - فهو في مثل قيمة قول اولئك الذين نعترف لهم اليوم : - كن فاضلاً - . انهما يتكشفان عن الحنين ، كما يتكشفان عن الجهل . انهما يمثلان معالجتين عقيمتين للمسائل العظيمة . وهما اصيلان فقط بالدرجة التي هما بها تقريبيان .

وهنا أشجار ، وأنا أعرف سطوحها المتشابكة ، وعطور العشب ، والنجوم في الليل ، في امسيات معينة حين يستريح القلب - كيف استطيع ان أنفي هذا العالم الذي اشعر بطاقته وقوته ؟ ومع ذلك فان كل المعرفة المتوفرة في الارض لن تعطيني شيئاً يؤكد لي ان هذا العالم هو ملكي انا . انت تصفه لي ، ، وتعلمني كيف اصنفه . وانت تحصي قوانينه ، وأنا ، في الظمأ الى المعرفة ، أقر بانها حقيقة . وانت تتناول كيفية سيره على حدة ، فيزداد أملي . وفي المرحلة الأخيرة تعلمني ان هذا الكون العجيب المملوء بمختلف الالوان يمكن ان يقلص الى

ذرة ، وان الذرة نفسها يمكن ان تقلص الى الكترون ، وكل هذا حسن وأنا في انتظار ان تستمر . ولكنك تخبرني عن نظام كوني غير مرئي تنجذب فيه الالكترونات الى نواة . وانت تفسر لي هذا العالم بالصورة ، وأدرك حينئذ انك تقلصت الى حد الشعر : وانني لن اعرف . وهل يتاح لي الوقت لكي استاء ؟ لقد غيرت انت النظريات ، بحيث ان العلم الذي كان سيعلمني كل شيء انتهى الى فرضية ، وبحيث ان الوضوح صار يتعثر في التشبيه ، وبحيث ان عدم اليقين تتم الاجابة عنه في عمل فني . فما حاجتي الى كل هذه الجهود ؟ ان الخطوط الناعمة لهذه التلال ويد المساء على هذا القلب القلق يعلماني اكثر . لقد عدت الى بدايتي . انني ادرك انني اذا كنت سأقبض على انظواهر واحصيها بواسطة العلم ، فانني لا استطيع ، مع كل ذلك ، ان افهم العالم . ولو كنت سألمس كيانه كله باصبعي فانني لن اعرف اكثر . وانت تخيرني بين وصف هو اكيد ولكنه لا يعلمني شيئاً ، وبين فرضيات تدعي بانها تعلمني ، ولكنها ليست أكيدة . غريب عن نفسي وغريب عن العالم ، مسلح فقط بفكر ينفي نفسه في اللحظة التي ينطلق فيها ببيان ما ، ترى ما هي هذه الوضعية التي استطيع ان اجد فيها السلام فقط برفض ان اعرف ويرفض ان اعيش ؟ والتي تنفذ فيها شهوة الغلبة عبر اسوار تتحدى هجماتها ؟ أن اريد هو ان اثير المتناقضات . وكل شيء هو منظم بحيث انه يأتي بذلك السلام المسموم الذي هو وليد اللاتفكير واللامبالات ، وإغفاء القلب ، والاعتزال القاتل .

وهكذا فان الادراك أيضاً يخبرني بطريقته بان هذا العالم لا مجد . أما عكس الادراك ، اي العقل الاعمى ، فقد يدعي ان كل شيء واضح لقد كنت انتظر البرهان واتمنى ان يكون صحيحاً . ولكن بالرغم من

هذا المدد من القرون الدعية ، وفوق رؤوس هذا العـدد من المقنعين والبلغاء ، فانني اعرف انه زائف . وعلى هذ المستوى ، على الاقل ، ليست هنالك سعادة اذا لم يكن في وسعي أن أعرف . أن ذلك السبب العام ، عملياً كان ام اخلاقياً ، وتلك النظرة التقريرية ، تلك الاصناف التي تفسر كل شيء ، كافية كلها لتجعل المـرء المعقول يضحك . تلك امور لا علاقة لها بالعقل ، انها تنفي حقيقته العميقة التي يراد الظفـر بها . وفي هذا الكون اللامفهوم ، المحدود ، يتخذ مصير الانسان منذ الآن فصاعداً معناه . لقد احاطت به عصبة من الامـور اللامعقولة ، حتى خاتمته النهائية . وفي وضوحـه المستمـاد ، المبحوث الان ، يصبح الشعور باللاجدوى واضحاً محـدداً . قلت ان العالم لا مجد ، ولكنني كنت قد تسرعت . كل ما يمكن قوله هو ان هذا العالم غير معقول . ولكن اللاجدوى تكمن في مواجهة هذا اللامعقول ، والتلهف الوحشي على الوضوح الذي يتردد صدى ندائه في القلب البشري . واللاجدوى تعتمد على الانسان كاعتمادها على العالم ، وفي الوقت الحاضر ، فان اللاجدوى هي الرابطة الوحيدة بينهما . انها تربطهما معاً كما يربط الحقد بين مخلوقين. وهذا هو كل ما استطيـع ان اراه بوضوح في هذا الكون الذي لا قياس له والذي تحدث فيه مغامرتي . دعنا نتوقف هنا . اذا اعتقدت بصحة اللاجدوى التي تقرر علاقتي بالحياة ، واذا تشبعت تماماً بتلك العاطفة التي تقبض علي أمام مشاهد العـالم ، مع ذلك الوضوح المفروض علي بلتتبع علم ما ، فعلي ان اضحي بكل شيء من اجل هـذه الامور الاكيدة ، وعلي ان اراها مباشرة لكي يكون في وسعي ان احتفظ بها . وفوق كل شيء ، علي ان اعد سلوكي ليناسبها ، والاحقها في كل نتائجهـا . انني اتحدث هنا عن الامور المناسبة . ولكنني اريد ان اعرف قبل ذلك

هل يستطيع الفكر ان يعيش في تلك الصحارى .

* * *

انا اعرف الان ان الفكر قد دخل الى هـــذه الصحارى بالفعل ، وهنالك وجد خبزه . وهنالك ادرك انــه كان قبل ذلك يعيش على الاشباح ، وبرر ذلك بعض أشد الأفكار الحاحاً على التأمل البشري .

منذ اللحظة التي يتم فيها ادراك اللاجدوى ، تصبح انفعـالاً ، أشد الانفعالات ازعاجـاً . ولكـــن سواء كان المرء يستطيع ان يعيش مع انفعالاته ام لا ، سواء كان يستطيع ان يتقبل قانونهـــا ام لا ، ذلك القانون الذي يحرق القلب الذي تسمو به تلك الانفعالات ، الجواب على ذلك هو الجواب على السؤال كله . ولكن هذا السؤال هو ليس السؤال الذي سنسأله الان . انه يكمن في مركز هذه التجربة . وسيتوفر لنـا الوقت لنعود اليه . دعنا نميز تلك الافكار والحوافز التي تولد في الصحراء . يكفينا ان نعددها . وهي ، ايضاً ، معروفة للجميع اليوم . كان هنالك دائماً قوم يدافعون عن حقوق اللامعقول ، ولم يختف من الوجود تقليد ما يسمى الفكر المذلل . وقد قيل الكثير في نقد المعقولية بحيث انه لا داعي هنا لتكرار كل ذلك . ومع هذا فان فترتنا تتميز بتكرار ظهور تلك الأنظمة المتعارضة التي تحاول ان تسقط هفوات العقل وكأنه كان هو الذي شق الطريق دائماً . ولكن هذا لا يثبت قدرة العقل على الوصول الى النتائج بقدر ما يثبت تركيز مطامحه . وعلى مستوى التاريخ، يوضح لنا ثبات الموقفين هذا الانفعال الاساسي للانسان الذي يتناهبـــه حافزه الى الوحدة ورؤياه الواضحة التي قد يملكها ، للاسوار التي تحيط به.

ولكن مهاجمة العقل لم تكن يوما ما بالقسوة التي هي عليها الان في عصرنا . فمنذ صرخة زرادشت العظيمة ! « هو بالصدفة أقدم نبل في العالم ، وقد منحته للاشياء كلها حين اعلنت انه لن تسيطر عليها ارادة أبدية » ، ومنذ مرض كير كغارد القتال – ذلك المرض الذي يؤدي الى الموت دون ان يتبعه شيء آخر – ، راحت معاني افكار اللاجدوى المعذبة يتبع احدها الاخر . أو على الاقـــل ، وهذا امر من الامور المهمة ، افكار الفكر اللامعقول والديني . فمن ياسبرز الى هايديغر ، ومن كيركغارد الى جيستوف ، ومن الباحثين عن الظواهر الى شيللر ، على المستوى المنطقـي وعلى المستوى الاخلاقي ، استمرت عائـــلة كاملة من الاذهان ، تجمعها الكآبة والحنين ، وتفرق بينها طرقها أو أهدافها ، في سد طريق العقل المتحكم ، وفي استعادة ممرات الحقيقة المباشرة . وافترض هنا ان هذه الأفكار معروفة ومعاشة . ومهـــما كان أو يكون طموح هؤلاء ، فقد بدأوا جميعاً من ذلك الكون الذي لا يوصف والذي يتحكم فيه التناقض والنسخ والعذاب أو الضعف . أما ما يجمعهم معاً فيتجلى في الأفكار التي كشفنا عنها حتى الآن . وقد كانوا هم أيضـــاً مهتمين بالنتائج التي يمكن استنتاجها من هذه الاكتشافات . وهـــذا مهم الى درجة اننا يجب ان نبحثهم بحثاً منفصلاً . ولكننا مهتمون الان باكتشافاتهم وتجاربهم الاولى فقط نحن معنيون فقط بملاحظة اتفاقهم . فاذا كان من باب الفرض ان نعالج فلسفاتهم ، فانه لممكن وكاف على اية حـــال ان نبين الجو الذي يحيط بهم معاً .

يبحث هايديغر الوضعيـــة البشرية بـبرود ويعلن ان ذلك الوجود مذلل . والحقيقة الوحيدة هي – القلق – في سلسلة الكائنات كلهـــا .

وبالنسبة للانسان الضائع في هذا العالم وتنوعاته يكون هذا القلق خوفاً قصيراً عابراً . الا انه اذا ادرك ذلك الخوف نفسه ، فانه يصبح عذاباً ، الجو الدائم لدى الانسان الواضح – الذي يتركز فيه الوجود – ان استاذ الفلسفة هذا يكتب بدون ان يرتعد ، وبأشد اللغة تجريدية في العالم ، قائلاً – ان صفة الوجود البشري ، الحاضرة المحدودة ، تسبق الانسان نفسه – . ويمتد اهتمامه (بكانط) فقط الى تمييز صفة – العقل الخالص – المقيدة . وهذا يعني انه يستنتج في نهاية تحليله – ان العالم لا يستطيع بعد ان يقدم شيئاً للانسان الذي يملأه العذاب – . ويلوح له هذا العذاب أشد أهمية جداً من كل الاصناف في العالم ، التي يفكر ويتحدث بهـا فقط . انـه يعدد مظاهره : السأم حين يحاول الانسان العادي ان يكتم العذاب ويشله في نفسه ، والرعب حين يتـأمل الذهن في الموت . وهو ايضاً لا يفصل الادراك عن التفاهة . فادراك الموت هو نداء القلق – ثم يوجه الوجود نفسه نداءه عبر وساطة الادراك – . انه لصوت العذاب ، وهو يرجو الوجود – ان يعود من ضياعه في – هم – المجهولة – . ويرى هايديغر ايضاً ان المرء يجب ألا ينام ، وانما يجب عليه ان يظل ساهراً حتى يحين التنفيذ . انـه يقف في هـذا العالم اللامجدي ويشير الى طبيعته العابرة . وهو يفتش عن الطريق وسط هذه الخرائب .

اما ياسبرز فهو ييأس من كل علم للكينونة ، لأنه يدعي اننا قـد فقدنا – البساطة – وهو يعرف اننا لا نستطيع ان نحقق شيئاً يمكن ان يتفوق على اللعبة القاتلة – لعبة المظاهر – . وهو يعرف ان نهاية الذهن هي الفشل . وهو يمعن النظر في المغامرات الروحية التي يتحدث عنهـا التاريخ ويكشف بلا رحمة نقيصة كل منهـا ، نقيصة كل نظام ، الوهم

الذي انقذ كل شيء ، التبشير الذي لم يفعل شيئاً . وفي عالمــه المضيع مدراً والذي تبين فيه استحالة المعرفة ، والذي تلوح فيه اللاشيئية الأبدية الواقع الوحيد ، ويلوح فيه اليأس الذي لا علاج له الموقف الوحيد ، في هـــذا العالم يحاول ان يستعيد خيط آريان الذي يؤدي الى الأسرار القدسية .

أما جستوف فهو يبين دون كلل في مؤلفاته الرتيبة رتابة رائعة ان احكم الأنظمة وأشد المعقولية عمومية تتهاوى دائماً امام لا معقولية الفكر البشري ، وهو لا يغفل حقيقة من الحقائق المتعارضة الساخرة في ذاتها ، او المتناقضات المضحكة التي تحط من قيمة العقل . انه يهتم بشيء واحد فقط ، وهذا هو الشاذ ، سواء في دنيــا القلب او دنيا الذهن . وخلال التجارب الدوستويفسكية عن الانسان المحكوم ، والمغامرات المؤلمـة التي يقوم بهـــا الذهن النيتشي ، واللعنات الهاملتية ، او ارستقراطية ابسن المريرة ، نجده يتعقب ويسلط الأضواء ويضخم الثورة البشرية ضد ما لا يمكن تغييره . انــه ينكر على العقل أسبابه ، ويبــدأ بالتقدم ببعض التصميم فقط وسط تلك الصحراء التي لا لون لها ، حيث يصبح اليقين احجاراً .

ولعــل أشد الجميع اهتمامــاً هو كيركغارد ، ففي جانب من وجوده على الأقل نجد انه قـــد فعل اكثر من مجرد اكتشاف اللاجدوى . فمن يكتب – ان أشد الصمت عناداً هو ليس امساك اللسان ، وإنما الكلام – يؤكد منذ البداية انه ليست هنالك حقيقة مطلقة أو قادرة على التعبير بصورة مرضية عن وجود هو بذاته مستحيل . ان دون جوان الفهم هذا يضاعف التسميات المستعارة بالمتناقضات ويؤلف – أحاديث التهذيب – ،

و ـ مذكرات مفسد ـ . وهو يرفض التعزيات والأخلاق والمبادىء الموثوق بها . أما بالنسبة للشوكة التي يحس بها في قلبه فانه يهتم بان لا يهدأ ألمها . بالعكس ، انه يوقظ الألم بالغبطة التي يشعر بها رجل يعاني من الصليب ، ولكنه يغتبط به ، ويبني حجراً – بالوضوح ، والرفض ، والوهم – نوع الانسان الذي يسيطر على أفكاره شيء ما . ذلك الوجه الرقيق والساخر ، وذلك الدوران ، الذي تتبعه صرخة من القلب ، هما الروح التافهة نفسها اذ تصارع واقعاً هو وراء فهمها . والمغامرة الروحية التي تقود كير كغارد الى فضائحه المحبوبة تبدأ بغموض تجربة محولة عن بدايتها ومنحدرة الى لاتماسكها الأصلي .

وعلى مستوى مختلف تماماً ، مستوى الطريقة ، نجد هوسيرل وأصحاب مبـدأ الظواهر ، يرون تعويض العـالم في تنوعه ، بواسطة افراطهم ولا تعقلهم ، وينكرون ان للعقل قوة تفوق طبيعته . ويصبح العالم الروحي بواسطتهم أغنى ، الى حد لا يوصف . فورقـة الوردة والحجر الذي يشير الى الاميال في الطريق ، واليد البشرية ، كلها هي في أهمية الحب والرغبة أو قوانـين الجاذبيـة . ويكف التفكير عن التوحيد وعن جعل التشابه الظاهر مألوفاً بشكل مبدأ رئيسي . ويتعلم التفكير من جديد أن يرى ، وأن يكون منتبهاً ، وأن يركز الادراك ، وهو يحول كل فكرة وصورة ، بطريقة بروست ، الى لحظة ذات مزايا . ان ما يبرر الفكر هو ادراكه المتطرف ، وبالرغم من ان هوسيرل هو أشد ايجابيـــة من كيركغارد وجيستوف إلا ان طريقته في السير ، منـذ البداية ، تتنكر مع ذلك لطريقـة العقل الكلاسيكية ، وتخيب الأمل ، وتكشف للبديهة والقلب توالداً للظواهر ، ويتصف بمجموع ذلك بصفة لا بشرية . وهـــذه الطرق

تؤدي الى كل العلوم، أو أنها لا تؤدي الى أي علم، ويشبه هذا قولنا انه في هذه الحالة تكون الوسيلة أهم من النتيجة. وكل ما يتضمنه ذلك هو – موقف للفهم – وليس تعزية. دعني أكرر: في البداية، على الأقل.

كيف يستطيع المرء ألا يشعر بالعلاقة الأساسية بين هذه الأذهان؟ كيف لا يستطيع المرء أن لا يرى أنهم يقفون حول اللحظة المتميزة المرة التي لا يجد الأمل لنفسه مكاناً فيها؟ انني أريد أن يتم شرح كل شيء لي، وإلا فانني لا أريد شيئاً. والعقل يكون مهماً حين يسمع هذا النداء من القلب. والذهن الذي يحوكه هذا الاصرار لا يبحث عن شيء ولا يجد شيئاً غير المتناقضات والسخف. والذي لا أفهمه هو السخف. والذين يسكنون في العالم هم أمثال هؤلاء اللامعقولين. والعالم نفسه، الذي لا أفهم معناه الوحيد، ليس غير لامعقولية هائلة. واذا استطاع المرء أن يقول مرة واحدة فقط: – هذا واضح –، فسيتم انقاذ كل شيء. ولكن هؤلاء الرجال ينافس بعضهم بعضاً في بيان انه ليس هنالك شيء واضح، وان كل شيء هو فوضى، وان كل ما لدى الانسان هو وضوحه ومعرفته الاكيدة للأسوار المحيط به.

وكل هذه التجارب تتفق مع بعضها البعض الآخر، وتؤكد بعضها بعضاً. فالذهن حين يبلغ حدوده يجب ان يصدر حكماً ويختار نتائجه. وهذا هو مكان الانتحار والجواب. ولكنني اريد ان اعكس الامر في هذه المسألة وأبدأ من المغامرة المدركة ثم آتي بعد ذلك الى الافعال اليومية. والتجارب المستعادة في الذهن هنا قد ولدت في الصحراء التي يجب علينا الا نتركها وراءنا. فعلى الاقل، من الضروري أن

نعرف الى أي مدى ذهبت تلك التجارب . وفي هذه النقطة من جهود الانسان ، نراه يقف وجهاً لوجه مع اللامعقول . وهــو يحس في نفس لهفته على السعادة والعقل . وتولد اللاجدوى من هذا التقابل بين الحاجة البشرية وصمت العالم اللامعقول . وهذا هـــو من الأمور التي يجب ألا تنسى . ويجب التمسك بهذا لان كل نتيجة الحياة يمكن ان تعتمد عليه . فاللامعقول ، والحنين البشري ، واللاجدوى التي يلدها لقاؤهما ، هذه هي الصفــات الثلاث في الدراما التي يجب بالضرورة ان تنتهي بكل ما في الوجود من منطق .

الانتحار الفلسفي

ان الشعور باللاجدوى ، مع ذلك ، هو ليس فكــرة اللاجدوى ، انه يضم اسسها ، وهذا هو كل ما في الامر . والشعــور ليس مقتصراً على تلك الفكرة ، ما عدا في اللحظة القصيرة التي يصدر فيها حكماً على الكون . ولهذا فان للشعور باللاجدوى فرصة الذهاب الى ما هو ابعد انه حي ، بعبارة اخرى ، يجب ان يموت او يتكرر . كذلك هـــو الامر مع الأفكار التي جمعناها معاً . ولكن هنا ايضاً أجد ان ما يهمني لا يتمثل في اعمال افضل الاذهان ، تلك الاعمــال التي يؤدي نقدها الى مكان آخر وشكل آخر ، وانما في اكتشاف ما يربط بــين استنتاجات تلك الاذهان . ونجد انه لم تختلف الاذهان يوماً كما تختلف هنا . ومع ذلك فاننا نرى كميزة بارزة ، الامتداد الروحي الذي تشير فيـــه تلك الإذهان . وكذلك ، فبالرغم من مناطق المعرفة المتماثلة هذه ، فان النداء الذي ينتهي به الامر يكون متشابهاً . ومن الواضح ان للمفكرين

الذين يحتنام الآن جواً عاماً . فاذا قلنا ان ذلك الجو قتال ، فان قولنا هذا لا يقترب من اللعب بالكلمات الا قليلا جداً . فالعيش تحت السموات الخانقة يضطر المرء على الهروب او البقاء . والمهم هو ان نرى كيف يهرب الناس في الحالة الاولى ، ولماذا يبقى الناس ، في الحالة الثانية . وهذا هو تعريفي لمشكلة الانتحار والاهتمام الممكن بنتائج الفلسفة الوجودية .

ولكنني اود اولاً ان اميل عن الطريق المباشرة . فقد استطعنا حتى الآن ان نحصر اللاجدوى عن الخارج . ويستطيع المرء ، على كل حال ، ان يتساءل عن مدى الوضوح في تلك الفكرة وان يحاول بالتحليل المباشر ان يكتشف معناها من ناحية ، والنتائج التي تشتمل عليها من الناحية الاخرى .

اذا اتهمت رجلا بريئاً بجريمة رهيبة ، واذا قلت لرجل فاضل انه قد اشتهى شقيقته ، فانه سيجيب قائلا ان ذلك لا مجد . ويكون لاستيائه مظهر كوميدي . ولكن له أيضاً سببه العميق ، والرجل الفاضل يوضح ، بذلك الجواب ، التناقض التعريفي الموجود بين الفعل الذي اعزوه اليه وبين مبادئه التي اعتنقها مدى الحياة — فانه لا مجد — تعني — انه مستحيل — ، ولكنها تعني ايضاً — انه متناقض — . واذا رأيت رجلا مسلحاً بسيف فقط ، يهاجم مجموعة من الرشاشات ، فانني سأعتبر عمله لا مجدياً . ولكن ذلك سيكون فقط بسبب اللاتناسب بين هدفه والواقع الذي سيواجهه ، التناقض الذي ألاحظه بين قوته الحقيقية والهدف الذي يرسمه لنفسه . وكذلك فاننا نقول عن حكم انه تافه حين نقارنه بالحكم الذي تكون الحقائق قد أملته بصورة واضحة . وكذلك

فان معنى اللاجدوى يتجلى بمقارنة نتائج مثل هـــذا التعليل مع الواقع المنطقي الذي يريد المرء ان يقيمه . وفي كل هذه الحالات ، من ابسطها الى اشدها تعقيداً ، يكون مقدار اللاجدوى متناسباً بصورة مباشرة مع البعد بين نقطتي المقارنة . هناك زيجات لا مجدية ، وتحديات ، واحقاد ، وصمت وحروب وحتى معاهدات صلح لا مجـــدية . وتنبثق اللاجدوى بالنسبة لكل من تلك الامور من المقارنة . ولهذا فلدي ما يبرر قولي ان الشعور باللاجدوى لا ينبثق من مجرد دقة حقيقية او انطباع ، وانما من المقارنة بين حقيقة مجردة وواقع معين ، بين الفعل والعالم الذي يفوق طبيعة ذلك الفعل واللاجدوى هي بصورة اساسية افـتراق . وهي لا تكمن في العناصر التي تتم مقارنتها ، وانما تولد من مواجهتها ببعضها .

وفي هذه الحالة بالذات ، وعلى مستوى الادراك ، استطيع ان اقول ان اللاجدوى ليست في الانسان (اذا كان لمثل هذا التشبيه أي معنى) وليست في العالم ، وانما في وجودهما معـــاً . واللاجدوى هي الرابطة الوحيدة التي تجمع بينهما الآن . واذا اردت ان احدد نفسي بالحقائق ، فانني اعرف ما يريده الانسان ، وما يقدمه العالم له ، ثم استطيع الآن ايضاً ان اقول انني اعرف ما يوحدهما . ولست في حاجة الى ان احفر عميقاً فيقين واحد يكفي بالنسبة للباحث ، وعليه فقط ان يستخرج منه كل النتائج . والنتيجة المباشرة هي أيضاً قاعـدة من قواعد الطريقة . والثلاثية الغريبة التي يسلط عليها الضوء هكـــذا ليست ، بالتأكيد ، بالاكتشاف الفجائي المدهش . ولكنها تشبـه مدلولات التجربة في انهـا بسيطة بصورة غير محدودة ، ومعقدة بصورة غير محدودة أيضاً . وأول ميزاتها هي انها لا يمكن ان تنقسم . فاذا دمرنا احد شروطها دمرناها

كلها . ولا يمكن ان تكون هنالك لا جدوى خارج الذهن البشري . وهكذا ، وككل شيء آخر ، تنتهي اللاجدوى بالموت . ولكن لا يمكن ان تكون هنالك لا جدوى خارج العالم ايضاً ، وانني لاحكم بموجب هذا المقياس البدائي ان فكرة اللاجدوى أساسية ، واعتبرها اولى حقائقي . ويظهر حكم الطريقة الذي أشرت اليه هنا ، فاذا حكمت بان شيئاً ما هو صحيح فيجب علي ان احتفظ بذلك ، واذا حاولت ان احل مشكلة ، فيجب علي على الاقل ان احاول ان استبعد بالحل نفسه شرطاً من شروط المشكلة . والمدلول الوحيد بالنسبة لي هو اللاجدوى واول شرط ، بل الشرط الوحيد في تساؤلي هو ان احتفظ بالشيء ذاته الذي يسحقني ، أي ان احترم بالتالي ما اعتبره ضرورياً فيه . وأكون بهذا قد عرفته بانه مواجهة وصراع لا ينتهي .

واذا سرت بهذا المنطوق التافه الى نهايته فيجب علي ان أقر بأن ذلك الصراع يشتمل على غياب تام للامل ، (وليس لهذا من علاقة باليأس) ، والرفض المستمر ، (ويجب ان نفهم من ذلك أنه نبذ) وللامرضي المدرك ، (الذي يجب علينا الا نقارنه بالقلق عند اللانضج) وكل ما يدمر ، او يستبعد ، او يطرد هذه المتطلبات ، (ولنبدأ بالقبول الذي يهدم الافتراق) ، نجده يدمر اللاجدوى ويقلل من شأن الموقف الذي يمكن اقتراحه بعد ذلك . للاجدوى معنى فقط حين لا يتم قبولها .

* * *

هنالك حقيقة واضحة تلوح اخلاقية تماماً : وهي ، ان الانسان هو

دائماً ضحية حقائقه . فانه حين يقر بها ، لا يستطيع ان يحـرر نفسه منها . وعلى المرء ان يدفع شيئاً . والانسان الذي يكون مدركـاً للاجدوى يرتبط بها الى الأبد . والانسان الخـالي من الأمل ، الذي يدرك انه كذلك ، لا يعود يمت للمستقبل بصلة . وهذا طبيعي ، ولكن من الطبيعي ايضاً ان عليه ان يكافح ليتخلص من الكون الذي كان هو قد خلقه . وليس لما ذكرته مغزى الا بموجب هذا التمارض . ولقـد اقر البعض بالجو اللاجدي ، مبتدئين بنقد المعقولية . وليس هنالك شيء أدل هنا من تفحص الطريقة التي توصلوا بها الى نتائجهم .

ولكي احصر نفسي بالفلسفات الوجودية ، فانني أجد أنهم كلهم ، بدون استثناء ، قد اقترحوا خلاصاً . فبالتعليـل الغريب ، مبتدئين باللاجدوى على خرائب العقل ، وفي كون مغلق محصور بما هو بشري ، نجدهم يؤلهون ما يسحقهم ويجدون سبباً للأمل فيما يفقرهم . وذلك الامل المفروض هو ديني فيهم جميعاً . وهو يستحق الاهتمام .

وسأحلل هنا ، كأمثلة فقط ، بعض الأفكار التي يميل اليها جيستوف وكيركغارد . ولكن ياسبرز سيقدم لنا ، بشكل مصغر ، مثلاً نموذجياً على هذا الموقف . وكنتيجة لذلك ، سيكون الباقـون أشد وضوحاً . انه متروك بلا قوة تتيح له ان يدرك ما وراء الحجب ، غير قادر على سبر غور التجربة ، ولكنه يدرك الكون الذي يقلبه الفشل رأساً على عقب ، فهل يتقدم ، او على الأقل يستنتج شيئاً من هذا الفشل ؟ انه لا يأتي بشيء جديد . وهو لم يجد في التجربة غير ربكة ضعفه هو ، ولم تتح له الفرصة ليخرج بمبدأ مرض . ومع ذلك ، وبدون اي مبرر ، كما يقول لنفسه ، يعلن فجأة عن ذلك الذي هو وراء الحجب ، جوهر

التجربة ، والمغـــزى الرئيسي للحياة ، حين يكتب : – الا يكشف الفشل ، بدون ان تكون هنالك اية امكانية للتفسير والايضاح ، لا عن غياب ، وانما عن وجود ذلك الذي هو وراء الحجب ؟ – انـه يعرف ذلك الوجود ، الذي يوضح كل شيء فجأة وعبر فعـل اعمى من أفعال الثقة البشرية ، بقوله انه – الوحدة اللامتصورة للعـــام والخاص . – وهكذا تصبح اللاجدوى إلهاً – باوسع معـاني هذه الـكلمة – وتصبح تلك الحاجة الى الفهم ، الوجود الذي يلقي ضوءاً على كل شيء . وليس هنالك شيء يمد هذا التعليل منطقياً – يمكنني ان اسميه قفزة . ويمكننا بصورة متعارضة ان نفهم اصرار ياسبرز ، وصبره اللانهائي المكرس لجعل تجربة الخفي غير ممكنة الادراك . لانه كلمـا كان ذلك التقريب عابراً اكثر ، كان التعريف أشد خلواً ، وذلك الخفي أشد حقيقة بالنسبة له ذلك لان الانفعال الذي يكرسه لتبيانه هـو مباشرة بنسبة التفسرة بين قوته على التفسير ولا معقولية العالم والتجربة . لقد اتضح بهذا انه كلما ازدادت مرارة تدمير ياسبرز لمفاهيم العقل الاولية زاد تفسيره للعالم جذرية . ان نبي الفكر المذلل هذا سيجد في نهاية الذلة وسائل اعادة تولد الكينونة باعمق ما يمكن ان تكون .

ولقد عودنا الفكر الصوفي على مثل هذه الوسائل . وهـذه الوسائل مشروعة ، تماماً مثل اي موقف يتخذه العقل . ولكنني أتصرف الآن وكأنني أتناول مشكلة ما بصورة جدية . وبدون أن أتقدم بحكم سابق على هذا الموقف وقيمته العامة ، او قابليته على اعطاء المعرفة اود ببساطة ان ابحث ما اذا كان مناسباً للصراع الذي يهمني . وهكـذا أعود الى جيستوف . لقد اورد أحد المعلقين عبارة منقولة عنـه ، وهي تستحق

الاهتمام : — الحل الصحيح الوحيد هــو بالضبط حيث لا يرى الرأي البشري أي حل ، وإلا فلمــاذا كنا سنحتاج إلى الله ؟ اننــا نعود إلى الله فقط لنحصل على المستحيل ، أمــا بالنسبة للممكن ، فالبشر يكفون . — واذا كانت هنالك فلسفة جيستوفية فيمكنني ان اقول انه من الممكن تلخيصها بتلك العبارة . لانه ، في نهاية تحليلاتـه العنيفة ، يكتشف اللاجدوى الاساسية في الوجود كله ، ولكنه لا يقول : — هذه هي اللاجدوى — ، وانما يقول — هذا هو الله : يجب علينا ان نعتمد عليه حتى إذا لم يكن يتجاوب مع اي من انواعنا المعقولة . — ولكي لا يكون الارتباك ممكناً فان هذا الفيلسوف الروسي يشير حتى الى ان هذا الله قد يكون مملوءاً بالحقد وما يثير الاشمئزاز ، غــير مفهوم ، ومتناقضاً ، ولكن كلما اشتدت مظاهر القسوة على وجهه ازداد تعبيره عن القوة . وعظمته تكمن في لا تماسكه ، وأما برهانه فهو بشريته ، وقد يكون على المرء أن ينطلق اليه وبهذه القفزة يحرر نفسه من الاوهام المعقولة . وهكذا فان قبول اللاجدوى بالنسبة لجيستوف هو أمر يحدث مع اللاجدوى نفسها . إن ادراكها يسمو الى منزلة قبولها ، وكل ما في تفكيره من جهد منطقي منصب على اظهارها بحيث يكون من الممكن ان ينطلق متدفقاً ذلك الامل الهائل الذي تشتمل عليــه . دعني اكرر ان هذا الموقف مشروع . ولكنني استمر هنا في بحث مشكلة واحدة مع كل نتائجها . وليس علي ان اتفحص انفعال فكر او فعل من افعال الايمان والعقيدة . لدي الحياة كلها لافعل ذلك فيها . انني اعــرف ان المحلل العقلي يتضايق من موقف جيستوف . ولكنني أشعر أيضــاً بأن جيستوف محق اكثر من المحلل العقلي ، واريد فقط ان اعرف هل يظل مخلصاً لوصايا اللاجدوى .

والآن فاذا أقر بأن اللاجدوى هي نقيضة الأمل ، فاننا نرى ان الفكر الوجودي بالنسبة لجيستوف يفترض اللاجدوى مقدماً ، ولكنه يثبتها ليطردها . ومثل هذه البراعة في التفكير هي خدعة رجل التمائم والتعاويذ العاطفية . وحين يقوم جيستوف في مكان آخر بوضع لا جدواه ضد الاخلاقية والعقل السائدين ، فانه يسمي ذلك حقيقة وخلاصاً . ولهذا فهنالك في هذا التعريف للاجدوى ، أساسياً : موافقة يصدرها جيستوف فاذا أقر بان كل قوة تلك الفكرة تكمن في الطريقة التي تسير بها ضد آمالنا البدائية ، اذا شعرنا بان البقاء يعني انه لن تكون هنالك حاجة للموافقة على اللاجدوى ، فيمكننا أن نرى بوضوح ان اللاجدوى تكون قد فقدت مظهرها الصحيح ، وميزتها البشرية والنسبية ، لكي تدخل أبداً هو غير مفهوم ولكنه مُرْضٍ . فاذا كانت هنالك لا جدوى فهي في كون الانسان ، وفي اللحظة التي تحول فيها الفكرة نفسها الى نابض الابدية ، فانها تكف عن الارتباط بالوضوح البشري . ولا تكون اللاجدوى حينذاك الدليل الذي يتأكد منه الانسان بدون أن يتفق معه . ويتم تجنب الصراع ويتحد الانسان مع اللاجدوى ، وبذلك يجعل صفات اللاجدوى الاساسية تختفي ، وتلك الصفات هي المضادة وبث الكآبة والافتراق . وهذه القفزة هي تخلص . كما ان جيستوف ، المولع جداً بعبارة هاملت — العصر مزعزع — ، يسجل ذلك بما يشبه الأمل الوحشي الذي يلوح انه يخصه هو . ذلك لأن هاملت لا يقصد ذلك في قوله هذا ، وشكسبير لا يهدف اليه . ان الانتشاء باللامعقولية ، والغبطة المذهلة يحولان الذهن الواضح عن اللاجدوى . وليست للعقل جدوى عند جيستوف ، ولكن هناك شيئاً وراء العقل . والعقل لا يجدي شيئاً بالنسبة للذهن اللامجدي ، وليس هنالك شيء وراء العقل بالنسبة لهذا الذهن .

يمكن لهذه الخطوة ان تلقي بعض الضوء بالنسبة لطبيعة اللاجدوى الحقيقية . نحن نعرف انها لا تستحق الذكر الا في حالة التعادل ، اي انها قبل اي شيء آخر ، في المقارنة وليست في طرفي المقارنة . ولكن يحدث ان جيستوف يؤكد على أحد طرفي المقارنة فيقضي عليها . ان رغبتنا في الفهم ، وحنيننا الى المطلق ، يمكن التعبير عنهما فقط ، بل بالضبط ، بمقدار استطاعتنا ان نفهم ونفسر أشياء كثيرة . ولا جدوى في نفي السبب بصورة مطلقة ، فله نظامه الذي به يكون مؤثراً ، وذلك النظام هو نظام التجربة البشرية . ولهذا السبب أردنا ان نجعل كل شيء واضحاً . واذا لم نستطع ان نفعل ذلك ، اذا ولدت اللاجدوى في تلك المناسبة ، فانها تولد بالضبط في نقطة التقاء العقل المؤثر المحدود مع اللامعقولية المتدفقة ابداً . والآن ، حين يثور جيستوف ضد فرضية هيغلية ، مثل – ان حركة المجموعة الشمسية تحدث بالتطابق مع قوانين لا تتغير ، وتلك القوانين هي سببها – وحين يكرس كل جهوده لاحباط معقولية سبينوزا ، فانه يستنتج ، بالتالي نتائج تقول بخواء العقل ، وكذلك ، يعكس الامور عكساً طبيعياً ، غير مشروع ، ببروز اللامعقولية بين كل الاشياء الاخرى . [1]

ولكن التحول ليس واضحاً . لانه قد تتدخل هنـــا فكرة المحدود وفكرة المستوى . وقد تعمل قوانين الطبيعة حتى مرحلة معينة ، أمـــا وراء هذه المرحلة فانها قد تنقلب ضد نفسها لتلد اللاجدوى . أو انها قد تبرر نفسها على مستوى الوصف بدون ان تكون لذلك السبب حقـائق على مستوى التفسير . وتتم التضحية هنا بكل شيء من اجل اللامعقولية،

---

(١) من اجل فكرة الاستثناء بصورة خاصة ، وضد ارسطو .

وحين يتم طرد الحاجة الى الوضوح ، تختفي اللاجدوى مع أحد طرفي مقارنتها .

ومن الناحية الاخرى ، فان الانسان اللاجدي لا يقوم بعملية المستويات هذه ، فهو يرى الصراع ، ولا يحتقر العقل بصورة مطلقة ، وهو يقر باللامعقولية . وهكذا فانه يتقبل ثانية ، بنظرة واحدة ، كل مدلولات التجربة ، وهو يميل قليلاً الى ان يقفز قبل ان يعرف . انه يعرف ببساطة انه ليس هنالك في ذلك الادراك المتوفز مكان للأمل .

وسنرى عند كيركفارد اكثر مما استطعنا أن نراه عند ليون جيستوف . والحق انه من الصعب تلخيص الفرضيات الواضحة عند مثل هذا الكاتب البارع في التملص . ولكن بالرغم من كتاباته المتناقضة ، واستعاراته ، وخدعه ، وابتساماته الساخرة ، يمكننا ان نشعر خلال مؤلفاته بتنبئه ، وفي الوقت نفسه بفهمه ، الحقيقة نراها في النهاية تتدفق في مؤلفاته الاخيرة . ذلك لان كيركفارد أيضاً يقوم بتلك القفزة . ولما كان قد ذعر في طفولته من المسيحية فانه يعود نهائياً الى اخشن مظاهرها . ويصبح النسخ والتعارض بالنسبة له ايضاً مقياسين لما هو ديني . وهكذا فان الشيء نفسه الذي قاده الى اليأس من معنى وعمق هذه الحياة ، يعطيه الآن حقيقته ورضوخه . المسيحية هي تضحية ، ولكن ما يدعو اليه كيركفارد يتمثل في التضحية الثالثة التي يطلبها اغناطيوس لويولا ، تلك التي يغتبط بها الله : — تضحية الذهن —[1] ونتيجة هذه القفزة الغريبة ،

---

(١) قد يظن انني اهمل المسألة الجوهرية هنا ، مسألة الايمان . ولكنني لست اتفحص فلسفة كيركفارد او جيستوف ، أو ، بعد ذلك ، هوسيرل (يتطلب هذا مكاناً آخر وموقفاً ذهنياً آخر) ، وانما أقوم فقط باستعارة فكرة منهم ، وبرؤية ما اذا كانت نتائجها يمكن ان تناسب الاسس التي وضعتها . المسألة هي مسألة استمرار في المحاولة .

ولكنها يجب ألا تدهشنا . انه يجعل من اللاجدوى مقياس العالم الاخر، في حين انها ما تبقى من تجربة هذا العالم . ويقول كيركفارد : — يجد المؤمن انتصاره في فشله . —

ليس لي ان أتساءل عن التعاليم المثيرة التي يرتبط بها هذا الموقف ، ولكن يجب علي فقط ان أتساءل عما اذا كان مشهد اللاجدوى ، وميزاتها ، يبرر هذا الموقف . بيد انني اعرف ان ذلك ليس صحيحاً بالنسبة لهذه النقطـــة . فعنـد بحث محتوى اللاجدوى ثانية يستطيع المرء ان يفهم فهماً افضل الطريقة التي ألهمت كيركفارد . فهو لا يحتفظ بالتعادل بين لامعقولية العالم وحنين اللاجدوى الثائر . وهو لا يحترم العلاقة التي تؤلف الشعور باللاجدوى . ولما كان واثقاً من عدم امكانية الخلاص من اللامعقولية ، فانه يريد ان ينقذ نفسه على الأقل من الحنين اليـــائس الذي يلوح له عقيما ، خاليـــاً من المضمون . ولكنه اذا كان محقاً في رأيه حول هذه النقطة فانه لا يمكن ان يكون في نفيه . اذا استمـاض عن نداء ثورته بتمسك عنيف فانه سيقاد الى حيث لا يرى اللاجـدوى التي كانت هي التي أرشدته قبل ذلك ، والى تأليه اليقين الوحيد الذي يملكه ، اللامعقولية . الشيء المهم ، كما قال آبيه غالياني لمدام ديبنيه ، هو ألا نشفى ، وانما ان نعيش مع أمراضنـــا . ولكن كيركفارد يريد ان يشفى . والشفاء هو رغبته الملهوفة ، وهي تظهر خلال كل مذكراته والمجهود العام الذي تبذله ذهنيته منصب على الخلاص من التعارض الكامن في الوضعيــة البشرية . وهذا هو مجهود يائس ، مـــا دام يدرك سخفه حين يتحدث عن نفسه وكأنه لا خوف الله ولا التقوى يمكن ان يمنحـاه السلام . وهكذا نجد انه ، عبر الأعذار الكاذبة المتلاحقة ، يعطي اللامعقوليــة مظهراً ، والله

صفات اللاجدوى : غير عادل ، غير متماسك ، غير مفهوم . والذكاء وحده يحاول فيه ان يخنق مطاليب القلب البشري الكامنة . ولما لا يتم اثبات شيء ، فمن الممكن اثبات كل شيء .

والحق ان كيركغارد نفسه يخبرنا بالطريق التي يسير فيهـا . ولست اريد ان أقترح شيئاً هنـــا ، ولكن كيف يفشل المرء في ان يرى في مؤلفاته بتر الروح المتعمد تقريبا ، لمعادلة البتر المقبول بالنسبة للاجدوى. ان ذلك يمثل الفكرة الكامنة في – المذكرات – . – وان الذي يشوهني هو الحيوان الذي يكون جزءاً من المصير البشري ايضاً ... ولكن اعطني جسماً عندئذ . – ثم يقول : – أوه ، خـاصة في اول شبابي ، كنت سأعطي كل شيء مقابل ان أكون رجلا ، حتى ولو لمدة ستة اشهر ، ... ان مـــا يعوزني بصورة أساسية هو الجسم ، والشروط المادية للوجود . – وفي مكان آخر نجد الرجل نفسه يتبنى نداء الأمل العظيم الذي هبط عبر قرون عديدة ، مشجعاً عدداً لا يحصى من القـــلوب ، خاصة قلب الانسان اللاجدي . ولكن الموت بالنسبة للمسيحي ليس نهـاية كل شيء وهو يشتمل بصورة لامحدودة على مزيد من الأمل ، أمل اكثر من الأمل الذي تشتمل عليه الحياة ، حتى حين تكون تلك الحياة متدفقة بالصحة والقوة . – ان التعزي بواسطة فضح النفس ما يزال تعزيا ، وهو يسمح للمرء ، كما يمكننـــا ان نرى ، بأن يأمل العكس ، الذي هو الموت . ولكن حتى اذا كان الشعور بالجماعة يدفع المرء الى ذلك الموقف . فمـا زال من الواجب علينا ان نقول أن الافراط لا يبرر شيئاً . فهذا يفوق الميزان البشري ، كما يقول المثل ، ولهذا فلا بد ان يكون فوق البشر . ولكن هذا – لذلك – هو أمر غير ضروري ، فليس هنالك يقين منطقي

في هذا ، كما انه ليس هنالك احتمال تجريبي ايضاً . وكل ما أستطيع ان أقوله هو أن ذلك يفوق ميزاني في الواقع . واذا لم أشتق منه نفياً ، فانني لا أريد على الاقل ان أؤسس أي شيء على اللامفهوم . أريد أن أعرف هل أستطيع أن أعيش بما أعرفه ، وبه وحده . ويقال لي ثانية إن الذكاء يجب ان يضحي بكبريائه هنا وان العقل يجب ان ينحني . ولكنني اذا رأيت حدود العقل فانني لا انفيه ، لأنني ادرك قواه النسبية . أريد فقط ان أظل في هذه الطريق الوسط حيث يستطيع الذكاء ان يظل واضحاً . فاذا كان هذا هو ما يؤلف كبرياءه فانني لا اجد هنالك ما يدعو الى التخلي عنه . لا شيء هنالك أعمق من وجهة نظر كيركغارد مثلاً التي يكون اليأس بها حالة وليس حقيقة — حالة الخطيئة نفسها . لأن الخطيئة هي التي تبعد عن الله [1] . واللاجدوى ، التي هي الحالة الميتافيزيكية للانسان المدرك ، لا تقود الى الله . ولعل هذه الفكرة ستتضح اكثر اذا جازفت بهذه العبارة المثيرة : اللاجدوى هي خطيئة بدون الله .

انها مسألة العيش في حالة اللاجدوى تلك . انني اعرف على ماذا تؤسس ، هذا الذهن وهذا العالم يتوتران ضد احدهما الآخر دون ان يكون في وسعها ان يتقبل احدهما الآخر . انني اسأل عن قاعدة حياة تلك الحالة ، ولا أجد غير ما يهمل أساسها ، وينفي أحد طرفي المعارضة المؤلمة ، ويتطلب مني استسلاماً . انني اسأل عما تتضمنه الوضعية التي هي وضعيتي كما ارى ، واعرف انها تتضمن الغموض والجهل ، ويقال لي إن

(١) لم أقل — تستبعد الله — لان ذلك يسمو الى منزلة التوكيد .

هذا الجهل يفسر كل شيء وان هذا الظلام هو نوري . ولكن ليس هنالك جواب لما قصدته ، وهـذه الغنائية المثيرة لا تستطيـع ان تخفي التعارض عني . يجب ان يدير المرء وجهه اذن . وقد يهتف كيركفارد محذراً : — اذا لم يكن للانسان ادراك ابدي ، واذا كانت في اعماق كل شيء قوة وحشية صخابة فقط ، تولد كل شيء ، كبيراً كان أم صغيراً ، في عاصفة الانفعالات المظلمة ، واذا كان الخواء الذي لا قعر له والذي لا يستطيع شيء ان يملأه ، يكمن في كل الاشياء ، فماذا ستكون الحياة غير اليأس ؟ — ولكن هذا النداء لن يوقف الانسان اللاعجدي . فالبحث عن الصحيح ليس البحث عـــن المرغوب . واذا كان يجب على المرء ليتجنب السؤال الملح : — ماذا ستكون الحياة ؟ — ان يأكل زهور الوهم ، كالحمار ، فـان الذهن اللاعجدي يفضل ، بدلاً من ان يتخلى عن نفسه لليـأس ، ان يتبنى جواب كيركفارد بدون خوف : — اليأس — . ان النفس المصممة ، برغم كل شيء ، تستطيـع ان تدبر امورها دائماً .

* * *

اني أسمح لنفسي هنا بأن أسمي الموقف الوجودي انتحاراً فلسفياً . ولكن هذا لا يشتمل على حكم . وانما هي طريقة مريحة في بيان الحركة التي ينفي بها الفكر نفسه ويميل الى التفوق على نفسه بنفيه هذا . النفي هو الله بالنسبة للوجوديين . واذا أردنا الدقة ، فان الاحتفاظ بذلك الله يتم فقط عبر نفي العقل البشري [1] . ولكننا نجد ، كالانتحار ، ان الآلهة يتغيرون تبعاً لتغير البشر . وهنالك طرق عديدة للقيام بالقفزة ،

(١) دعني أبين ثانية. — لست أناقش الاعتراف بالله هنا ، وانما المنطق المؤدي الى هذا الاعتراف.

بيد ان الامر الجوهري هو ان تتم القفزة ذاتها . قد تنبثق ألوان النفي هذه ، والمتناقضات النهائية التي تنفي العقبة التي لم يتم القفز فوقها بعد ، (وهذا هو التناقض الذي يهدف اليه هذا التعليل) ، قد تنبثق من وحي ديني معين تماماً كما تنبثق من النظام التعليلي . انهم يطالبون بالخالد دائماً ، وهم يقومون بالقفزة في هذا وحده .

عليّ ان اكرر ان التعليل المطور في هـــذا البحث يتخلى تماماً عن الموقف الروحي الواسع الانتشار في عصرنا المثقف ، ذلـك الموقف الذي يستند على المبدأ القائل بان كل شيء هو العقل ، والذي يهدف الى تفسير العالم . وانه لأمر طبيعي اعطاء وجهة نظر واضحة عن العالم بعد قبول الفكرة القائلة بانه يجب ان يكون واضحاً . بل ان هذا امر مشروع ، ولكنه لا يخص التعليل الذي نتتبعه هنا . والحق اننا نهدف الى القــاء ضوء على الخطوة التي يقوم بها الذهن حين ينتهي به الامر الى العثور على معنى وعمق في الفلسفة التي يبدأ منها والتي تقول بعدم وجود اي معنى في العالم . وأشد هذه الخطوات تأثيراً هي الخطوة الدينية ، وهي تتضح في فكرة اللامعقولية . ولكن أشدها تناقضاً وأعمقها مغزى هي تلك التي تنسب اسباباً معقولة لعالم كانت بالاصل تتخيله خالياً من اي مبدأ موجه . ومن المستحيل في أية حالة الوصول الى النتائج التي تهمنا بدون ان نعطي فكرة عن هذا الذي تحققه روحية الحنين المكتئب .

سأتفحص فكرة – القصد – فقط ، التي نادى بها هوسيرل واصحاب مبـــدأ الظواهر . فطريقـــة هوسيرل كانت بالاصل تنفي النسق العقلي الكلاسيكي . دعني اكرر ، فالتفكير ليس التوحيد ولا جعل المظهر مألوفاً

تحت ستار مبدأ عظيم . التفكير هو ان نتعلم من جديد كيف نرى ، وكيف نوجه ادراكنا ، وكيف نجعل من كل تصور مكاناً متميزاً . وبعبارة اخرى ، فان مبدأ الظواهر لا يفسر العالم وانما يريد فقط ان يكون وصفاً للتجربة الفعلية . انه يؤكد الفكر اللامجدي ببيانه البدائي القائل بانه ليست هنالك حقيقة ، وانما هنالك حقائق . فمن نسائم المساء الى هذه اليد التي هي على كتفي ، تكون لكل شيء حقيقته ، والادراك يضيئها بانتباهه اليها . والادراك لا يشكل موضوع فهمه ، وانما هو يركز فقط ، انه عملية الانتباه ، واذا اقتطفنا شيئاً من برغسون امكننا ان نقول انه يشبه آلة العرض التي تتركز فجأة في صورة . والفرق هو أنه ليس هنالك سيناريو ، وانما هنالك توضيح متعاقب غير متماسك . وفي ذلك الفانوس السحري تكون لكل صورة ميزاتها . والادراك يعلق في التجربة موضوعيات انتباهه ويعزلها بواسطة معجزته ، فتصبح لذلك وراء كل الاحكام . وهذا هو – القصد – الذي يميز الادراك . ولكن هذه الكلمة لا تعني شيئاً من معاني النهائية ، وانما تؤخذ بما تعنيه من – الاتجاه – واهميتها الوحيدة هي في الوصف المكاني .

يلوح للوهلة الاولى انه ، بهذه الطريقة لا يناقض شيء ما الروحية اللامجدية . فالتواضع الفكري هذا الذي يحصر نفسه بوصف ما لا يريد تفسيره ، وذلك الضبط الذي ينجم منه بصورة متناقضة غنى عميق في التجربة ومولد العالم ثانية بكل ما فيه من كثرة ، كل تلك الامور هي عمليات لامجدية ، على الاقل للوهلة الاولى . لأن طرق الفكر ، في هذه الحالة كما في الحالات الأخرى ، تتخذ مظهرين دائماً ، الاول سايكولوجي

والثاني ميتافيزيكي[1] ، ولهذا فانها تتقبل حقيقتين . فاذا كانت فكرة المقصود تدعى فقط بتوضيح موقف سايكولوجي ، تستنفد فيه الحقيقة الواقعية بدلاً من ان يتم تفسيرها ، فلا شيء يفصلها في الواقع عن الروحية اللامجدية . انها تهدف الى تعداد ما لا تستطيع تخطيه . انها تؤكد فقط انه بدون اي مبدأ موحد ، يستطيع الفكر ان يغتبط بوصف وفهم كل مظهر من مظاهر التجربة . وهكذا تكون الحقيقة التي يتضمنها المظهر ان سايكولوجية في طبيعتها . انها تدل فقط على - الاهمية - التي يستطيع الواقع ان يعطيها . انها طريقة في ايقاظ عالم نائم ، وجعله واضحاً حياً في الذهن . بيد انه اذا حاول المرء ان يوسع فكرة الحقيقة تلك ، ويعطيها اساساً معقولاً ، اذا ادعى المرء بانه بهذه الطريقة يكتشف - جوهر - كل موضوعي من موضوعيات المعرفة فانه يعيد الى التجربة عمقها . لأن ذلك غير مفهوم بالنسبة للذهن اللامجدي . والآن فان هذا التردد بين الاعتدال والثقة الملحوظين في الموقف القصدي ، وهذا التلألؤ المتقطع للفكر المعني بالظواهر ، هما اللذان سيوضحان التعليل اللامجدي افضل من اي شيء آخر .

ذلك لأن هوسيرل يتحدث ايضاً عن - جوهريات متطرفة في موقتيتها - يلقي الانتباه ضوءه عليها ، وهو يشبه افلاطون في هذا . فكل الاشياء لن يتم تفسيرها بشيء وانما بكل الاشياء . انني لا ارى اي فرق . ولنثق بان تلك الافكار الخاصة بتلك الجوهريات التي ينتجها الادراك في نهاية كل وصف لا يمكن ان توصف الآن باعتبارها نماذج كاملة . ولكنه قد تم

---

(١) حتى أشد علوم المعرفة قوة تشتمل على الميتافيزيك ، ولدرجة ما فان ميتافيزيكية عدد كبير من المفكرين المعاصرين تتألف من انهم لا يملكون شيئاً يقدمونه غير علم المعرفة .

بيان كونها حاضرة مباشرة في كل مدلول من مدلولات المعرفة الحسية . فلم تعد هنالك فكرة واحدة تفسر كل شيء ، وانما هنالك عدد لا نهاية له من الجوهريات التي تعطي معنى لعدد لا نهاية له من الموضوعيات . يتوقف العالم ولكنه يضيء ايضاً . وتصبح واقعية افلاطون بديهية ، ولكنها ما تزال واقعة . لقد كان كيركغارد مبتلماً في الله كيركغارد ، وغاص بارمينيدس بالفكر في الواحد . ولكن الفكر هنا يندفع نحو تعدد الهي تجريدي . وليس هذا كل شيء ، لأن هذيان الخيالات والتصورات ايضاً تخص – الجوهريات المتطرفة في مؤقتيتها – . وفي عالم الافكار الجديد ، يتعاون اصحاب الطبائع المزدوجة مع الجنس الاشد تواضعاً ، جنس الانسان المتمدن .

كان الانسان اللامجدي يجد في ذلك الرأي السايكولوجي الصرف القائل بان لكل مظاهر العالم ميزاتها الخاصة حقيقة ومرارة . فالقول بأن لكل شيء ميزاته الخاصة يشبه القول بان كل شيء هو مساو ومعادل . ولكن المظهر الميتافيزيكي لتلك الحقيقة مغال في البعد بحيث ان الانسان اللامجدي يشعر عبر رد فعل بدائي بأنه ربما كان اقرب الى افلاطون . والحق انه يتعلم ان كل تصور يفترض مقدماً جوهراً مساوياً له في ميزاته . وفي هذه الفكرة يكون العالم خالياً من الطبقات ، يكون جيشاً مؤلفاً من الجنرالات وحسب . والحق ان الوصول الى الخوارق امر قد تمت ازالته . ولكن اتجاهاً مفاجئاً في الفكر يعيد للعالم نوعاً من الجوهر الكامن الجزأ الذي يعيد للكون عمقه .

هل يخيفني انني أغرقت في بحث فكرة بحثها خالقوها أوسع البحث

وأعمقه ؟ انني أكتفي بقراءة بيانات هوسيرل التي يلوح انها متعـارضة ، ومع ذلك فهي منطقية بصورة قوية اذا تم قبول ما ذكرناه : ان ما هو صحيح ، هو صحيح بصورة مطلقة وبذاته . والحقيقة واحدة ، بذاتهـا تعرّف ذاتها ، مهما اختلفت المخلوقات التي تدركها ، بشراً ، او عمالقة ، او ملائكة ، او آلهة . - ان العقل ينتصرويعلن قائلاً : لا استطيع ان أنكر . فماذا تعني بياناته في عالم اللاجدوى ؟ ان الادراك الحسي في الملاك او الإله لا يعني شيئاً بالنسبة لي . وذلك الموضوع الهندسي الذي يصادق فيه العقل المقدس على عقلي سيكون دائماً امراً غير مفهوم بالنسبة لي . فهنالك ايضاً أرى قفزة ، وبالرغم من انها تتم تجريداً الا انها تعني بالنسبة لي نسيان ما لا اريد نسيانه . وحين يتساءل هوسيرل بعد ذلك : — لو كانت كل الكتل الخاضعة للانجذاب ستختفي ، فان قانون الجذب لن يدمر وإنما سيظل دون ان يكون في الوسع تطبيقـــه . — انني أعرف انني أواجه ميتافيزيكيـة معزية ، واذا كنت سأكتشف الموضع الذي يفترق فيه الفكر عن الدليل ، فليس علي الا ان أعيد قراءة التعليـل الموازي الذي يقول به هوسيرل بشأن الذهن : — لو استطعنا ان نتأمل بوضوح في قوانين العمليات الذهنية فانها ستلوح خالدة لا متغيرة ، تماماً كالقوانين الأساسية في العلم الطبيعي النظري ـ وهكذا فستكون صحيحة حتى اذا لم تكن هنالك عملية ذهنية . وحتى اذا لم يوجد الذهن ، فان قوانينـه ستكون موجودة ! وهكذا أجد ان هوسيرل يريد ان يجعل من الحقيقة السايكولوجية حقيقة معقولة . فبعد انكاره القوة المتماسكة في العقـــل البشري ، يقفز بهذا الى العقل الخالد .

ان فكرة هوسيرل عن — الكون الملموس — لا يمكن ان تدهشني .

واذا قيل لي ان الجوهريات ليست كلها شكلية وانما بعضها هو مادي ، ان الاولى هي موضوع المنطق والثانية هي موضوع العلم ، فهذه هي مسألة تعريف . ويقال لي ان المجرد يشير الى جزء فقط ، دون ان يكون منسجماً بذاته ، من كون مجرد . ولكن التردد الذي بينته يسمح لي ان ألقي ضوءاً على ربكة هذه الامور . لأن ذلك قد يعني ان الموضوعي الملموس في انتباهي ، هذه السماء ، وانعكاس ذلك الماء على هذه السترة ، هو الذي يحتفظ وحده باستقلال الواقعي الذي يعزله اهتمامي في العالم . وان أنكر ذلك . ولكن ذلك قد يعني ايضاً ان هذه السترة نفسها هي عامة ، وان لها جوهرها الخاص الكافي ، وانها تخص عالم الاشكال . وهكذا أدرك انه لم يتغير الا ترتيب العرض . فلم يعد هذا العالم ينعكس في كون أعلى ، ولكن سماء الأشكال تتمثل في حشد صور هذه الأرض . ولا يبدل هذا شيئاً بالنسبة لي . وبدلاً من ان أواجه هنا تذوقاً للملموس، ولمعنى الوضعية البشرية ، أجد عمقاً فكرياً غير مقيد بصورة كافية لتعميم الملموس نفسه .

* * *

من غير المجدي ان نندهش من التعارض الواضح الذي يقود الفكر الى نفي ذاته بالاتجاهات المعاكسة في العقل المذلل والعقل المنتصر . فمن إله هوسيرل المجرد الى إله كيركغارد الذي يبهر الأنظار ليس هنالك بعد كبير . ان العقل واللامعقولية يؤديان الى التبشير ذاته . والحق ان طريقة الوصول لا تهم الا قليلا ، وانما تكفي إرادة الوصول . والفيلسوف التجريدي ، والفيلسوف الديني يبدآن من الفوضى نفسها ، ويعاون احدهما الآخر في القلق ذاته . ولكن الأمر الجوهري هو التفسير . والحنين

الكئيب هنا هو أقوى من المعرفة . ومن الأمور التي لها دلالتها ان تفكير العصر هو في وقت واحد تفكير مشبع بفلسفة تقول بلامغزى العالم ، وتفكير منقسم على نفسه بالنسبة لنتائجه أشد الانقسام . انه متأرجح دائماً بين التطرف في اسباغ التعليل المعقول على الواقع الأمر الذي يميل الى تقسيم ذلك الفكر الى أسباب قياسية ، وبين التطرف في اللامعقولية التي تميل الى تأليفه . ولكن هذا الافتراق سطحي فقط . انه أمر خاص بالتوفيق بينهما ، وفي أية واحدة من الحالتين نجد ان الفقرة تكون كافية . ومن المظنون خطأ دائماً ان فكرة العقل هي فكرة ذات اتجاه واحد فقط . والحق انه مهما يكن هذا المفهوم متشدداً في مطامحه ، فانه يشبه الاشياء الاخرى في لااستقراره . فالعقل مظهر بشري تماماً ، ولكنه قادر ايضاً على الاتجاه نحو المقدس . ومنذ بلوتينوس ، الذي كان أول من وفق بينه وبين الجو الخالد ، تعلم العقل الرجوع عن أعز مبادئه ، التعارض ، لكي يكون في وسعه ان يجعل في ذاته أشد المبادىء غرابة وسحراً ، مبدأ المشاركة [١] . انه وسيلة من وسائل الفكر ، وليس الفكر نفسه . ثم ان فكر الانسان هو حنينه المكتئب .

وتماماً كما استطاع العقل ان يطمئن سوداوية بلوتينوس ، فانه يقدم

---

(١) أ — كان على العقل في ذلك الوقت ان يكيف نفسه او يموت ، انه يكيف نفسه . وبعد ان يكون العقل منطقياً عند بلوتينوس ، فانه يصبح جمالياً ، ويحل التشبيه محل الفرض والنتيجة المنطقيين .

ب — واكثر من ذلك ، فان هذه ليست مساهمة بلوتينوس الوحيدة في علم الظواهر ، فقد تجلى هذا الموقف كله في المفهوم الذي كان يتشبث به هذا المفكر الاسكندري بحيث انه ليست هنالك فكرة الانسان وحسب ، وانما فكرة سقراط ايضاً .

للعذاب الحديث وسائل ليهدىء نفسه بها في الشكل المألوف لما هو خالد. ولكن الذهن اللاجدي ليس محظوظاً هكذا. فهو لا يرى العالم بهذه المعقولية، ولا بهذه اللامعقولية. انه غير مبرر وحسب. وليس للعقل من حدود مع هوسيرل مطلقاً. اما اللاجدوى فانها، على العكس، تضع حدودها لكونها غير قادرة على تهدئة عذابها. ويقول كيركغارد بصورة مستقلة ان حداً واحداً يكفي لكي ينفي ذلك العذاب، ولكن اللاجدوى لا تذهب الى ذلك المدى. فبالنسبة لها يكون ذلك الحد موجهاً فقط نحو مطامح العقل. ان فكرة اللامعقولية، كما يفهمها الوجوديون، هي العقل الذي يرتبك، ويهرب عبر نفيه لنفسه. اللاجدوى هي العقل الواضح الذي يلاحظ حدوده.

ولا يدرك الانسان اللاجدي الا في نهاية هذا المر الصعب دوافعه الحقيقية. وبمقارنة إلحاحه الداخلي ما يقدم اليه، يشعر فجأة بأنه مقدم على التراجع. وفي كون هوسيرل يتضح العالم ويصبح ذلك التلهف على المألوف، الذي يضمره القلب، غير مجد. اما في الهام كيركغارد فيجب التخلي عن تلك الرغبة في الوضوح اذا كان يراد اشباعها. فالخطيئة لا تتمثل في المعرفة (وإلا لكان الجميع أبرياء) وانما تتمثل في الرغبة في المعرفة. والحق انها الخطيئة الوحيدة التي يستطيع الانسان اللاجدي ان يشعر بانها تؤلف جريته وبراءته معاً. ان أمامه حل تصبح فيه متناقضات الماضي كلها لعباً جدلية. ولكنه لم يجرب ذلك هكذا. اذ يجب الاحتفاظ بحقيقة تلك المتناقضات، وتتألف هذه الحقيقة من انها لا يتم ارضاؤها واشباعها. انه لا يريد التبشير.

ان تعليلي يريد ان يكون مخلصاً للدليل الذي أثاره. وذلك الدليل

هو اللاجدي . ان ذلك الافتراق بين الذهن الذي يرغب والعـــالم الذي يخيّب ، حنيني الى الوحدة ، هذا الكون الجزأ والتنـاقض الذي يجمع الأجزاء معاً ، تلك الامور كلها هي الدليل . فكير كغارد يكبت حنيني ، وهوسيرل يجمع أجزاء ذلك الكون . ولكن هذا هو ما لم أكن أتوقعه . كانت المسألة تتعلق بعيش ، والتفكير بهذه الامور المزعزعة ، وبمعرفة ما اذا كان المرء يقبل ام يرفض . وليس هنالك مجال لبرقعة الدليل ، لكتم اللاجدوى بانكار احد طرفي معادلتهـا . ومن الجوهري ان يعرف المرء هل يستطيع ان يعيش معها ، ام ان المنطق ، من الناحية الاخرى ، يجعل المرء يموت بها . ولست مهتماً بالانتحـار الفلسفي ، وانما بالانتحار العادي . انني اريد فقط ان أنقيه وأخلصه من محتواه العاطفي وان أعرف منطقه وتماسكه . وكل موقف آخر يعني بالنسبة للذهن اللاجدي الخداع وتراجع الذهن امام ما كان الذهن نفسه قد كشف عنه . ويقول هوسيرل انه يطيع الرغبة في الخلاص من العـادة المتأصلة ، عادة العيش والتفكير ضمن ظروف من الوجود ، معينة معروفة ومريحة — ، ولكن القفزة النهـائية تعيد فيه الخالد ، والراحة التي ترافق ذلك . ولا تمثل القفزة خطراً شديداً كما يتوقع منها كيركغارد ان تفعـل . فالخطر ، بالعكس ، يكمن في اللحظة الدقيقة التي تسبق القفزة . والقـــدرة على البقاء فوق القمة التي تدير الرأس — هذا هو التماسك ، والبقية هي الزيف . وأنا أعرف ايضاً ان الضعف لم يلهم مثل هذه التوافقات الملحوظة لأحد كما ألهم كيركغارد بها . بيد انه اذا كان للضعف مكانه في مشاهد التاريخ اللامكترثة ، فليس له مثل هذا المكان في التعليل الذي نعرف الآن أهميته والحاحه .

والآن بعد ان أتممت الشيء الرئيسي ، ما تزال لديّ حقائق معينة لا استطيع ان أبتعد عنها . فما أعرفه ، ما هو أكيد ، وما لا أستطيع ان أنكره ، وما لا استطيع ان أرفضه – هذا هو المهم . استطيع ان أنفي كل شيء في هذا القسم من أقسامي ، الذي يعيش على حنين غامض ، ما عدا هذه الرغبة في الوحدة ، هذا الشوق الى الحل ، تلك الحاجة الى الوضوح والتماسك . استطيع ان اثبت بطلان كل شيء يحيط بي في هذا العالم ، مما يسيء اليّ او يسعدني ، ما عدا هذه الفوضى ، هذه الفرصة السائدة ، والتساوي المقدس المنبثق من الفوضى . ولست اعرف هل ان لهذا العالم معنى هو أبعد من العالم ، ولكنني اعرف أنني لا أعرف ذلك المعنى وانه من المستحيل عليّ الآن ان اعرفه . فماذا يمكن ان يعني بالنسبة لي المعنى الذي يكمن خارج وضعيتي ؟ استطيع ان افهم بقياس ما هو بشري فقط . فما ألمسه – ما يقاومني – هذا هو ما افهمه . وهذان اليقينان – شوقي الى المطلق والوحدة ، واستحالة تقليص هذا العالم الى مبدأ معقول مقبول – اعرف جيداً انني لا استطيع التوفيق بينهما . فأية حقيقة اخرى استطيع ان أقر بدون ان أكذب ، بدون ان آتي بأمل ليس عندي شيء منه ولا يعني شيئاً ضمن حدود وضعيتي ؟

لو كنت شجرة بين الاشجار ، قطة بين الحيوانات ، فقد كان سيصبح لهذه الحياة معنى ، او ان هذه المشكلة لن تنهض ، اذ انني كنت سأنتمي الى هذا العالم . يجب ان أكون هذا العالم الذي أقف الآن ضده بسبب ادراكي الكامل وإصراري الكامل على المألوف . وهذا السبب

المضحك هو الذي يجعلني أقف ضد كل الخليقة ، ولا يمكنني ان اشطبه بجرة قلم . يجب ان احتفظ بما اعتقد انه حقيقي . ويجب عليّ ان أدعم ما يلوح لي واضحاً حتى ولو كان ضدي أنا . وهل يؤلف أساس ذلك الصراع ، ذلك الافتراق بين العالم وذهني ، غير إدراكي له ؟ فاذا أردت لذلك الاحتفاظ به ، فيمكنني ان أفعل ذلك بواسطة إدراك مستمر ، مستعاد دائماً متوفر أبداً . هذا هو ما يجب ان أتذكره في هذه اللحظة . وهنا تعود اللاجدوى ، الواضحة ، ومع ذلك التي يصعب الفوز بها ، الى حياة الانسان لتجد موطنها هناك . وهنا ايضاً ، يستطيع الذهن ان يترك طريق المجهود الواضح ، ذلك الطريق الكئيب المحل المقفر . ويظهر هذا الطريق الآن في الحياة اليومية . انه يوجد في عالم الضمير غير المعروف – هو – ولكن الانسان صار يدخله بثورته وبوضوحه . لقد نسي كيف يأمل . وجهنم الحاضر هي مملكته اخيراً ، وصارت المشاكل كلها تستعيد ارهاف حافاتها الحادة ، وصار الدليل المجرد يتراجع امام شعرية الأشكال والألوان ، والصراعات الروحية صارت تتجسد وتعود الى الملجأ التعس ، والرائع ، في قلب الانسان . ولكن شيئاً من ذلك لم يستقر او يحل ، وانما تحولت أشكالها بأجمعها . فهل يموت المرء ؟ يتخلص بالقفزة ؟ ويعيد بناء هيكل من الأفكار والأفكار يكون مؤيداً له ؟ ثم ، بالعكس ، هل سيقبل المرء ذلك الرهان الذي يمزق القلب ، العجيب ، اللاجدوى ؟ دعنا نقم بمجهود نهائي في هذا الصدد ونخرج بكل استنتاجاتنا . ستعود المحبة ، والجسد ، والخلق ، والفعالية ، والنبل البشري الى استئناف أمكنتها في هذا العالم المجنون . وسيجد الانسان هنالك أخيراً ، مرة اخرى ، خمر اللاجدوى ، وخبز اللاكتراث ، اللذين يطعم بهما عظمته .

دعنا نصر ثانية على الطريقة : انه امر راجع الى الاصرار المستمر . ان الانسان اللاعجدي يواجه الاغراء في نقطة معينة على طريقه . ولا يعلم التاريخ امثلة على ذلك من اديان او انبياء ، حتى بدون آلهة . المطلوب منه ان يقفز . وكل ما يستطيع ان يقفز . وكل ما يستطيع ان يرد به هو انه لا يفهم ، وان الامر ليس واضحاً . انـه ، حقاً ، لا يريـد ان يفعل اي شيء غير ما يفهمه تماماً . انه متأكد من ان هذه هي خطيئة الغرور ، ولكنه لا يفهم فكرة الخطيئة ، وهو متأكد من ان جهنم قد تنتظره ، ولكنه لا يملك الخيال الكافي ليرى ذلك المستقبل الغريب ، وهو متأكد من انه سيضيع الحياة الخالدة ، ولكن هذا يلوح له اعتباراً كسولاً . هنالك محاولة لجعله يعترف بجرمه . وهو يشعر بانـــه بريء . الحق ان هذا هو كل ما يشعر به ، براءته التي لا يمكن تبديلها . وهذا هو ما يسمح له بكل شيء . ولهـذا فان مـا يطلبه من نفسه هو ان يعيش فقط بما يعرفه ، وان يهب نفسه ما هو اكيد وألا يهبها مـا هو غير اكيد . ويقال له انه ليس هنالك شيء هو هو . ولكن هذا بحد ذاته هو اكيد ، وهو معني بهذا ، فهو يريد ان يرى اذا كان ممكناً ان يعيش بدون اي نقص .

* * *

استطيع الآن ان اتغلغل في فكرة الانتحار . لقـد توفر حتى الآن شعور بالحل الممكن اعطاؤه . وفي هذه المرحلة يتم عكس المسألة . كانت في السابق فكرة ايجاد ما اذا كانت الحياة تتطلب ان يكون لها معنى لكي تعاش . ويتضح الآن ، بصورة عكسية ، انها تعاش بصورة افضل اذا لم يكن لها معنى . فعيش تجربة ، حياة معينة ، هو قبولها تماماً .

والآن ، فلن يعيش احد هذا المصير ، عالماً بانه لاجدٍ ، ما لم يحاول ان يفعل كل شيء يؤدي الى اخضاع تلك اللاجدوى لنور الادراك . فنفي احد طرفي التناقض الذي يعيش فيه يشبه التخلص منه . والغاء الثورة المدركة هو اغفال المشكلة . وهكذا يتم حمل فكرة الثورة الدائمة الى التجربة الفردية . والعيش هو ابقاء اللاجدوى على قيد الحياة . وابقاء اللاجدوى على قيد الحياة هو ، قبل اي شيء آخر ، التأمل فيها . وبعكس ما يقوله يوريديس ، نجد ان اللاجدوى تموت فقط حين نلتفت عنها . وهكذا فان الثورة هي احدى المواقف الفلسفية الوحيدة المتماسكة . انها المواجهة الدائمة ، بين الانسان وغموضه ، والاصرار على شفافية ووضوح مستحيلين . وذلك الموقف يتحدى العالم من جديد في كل ثانية . وكما اتاح الخطر للانسان الفرصة الفذة ليغتنم يقظته ، فان الثورة الميتافيزيكية تجعل ذلك التيقظ يشمل التجربة كلها . وذلك هو مثول الانسان الدائم امام عيني نفسه ، وهو ليس طموحاً ، لأنه خال من الامل . ان تلك الثورة هي يقين المصير الساحق بـدون الاستسلام الذي كان يجب ان يرافق ذلك اليقين .

وهنا يمكننا ان نرى الى اي حد تبتعد التجربة اللامجدية عن الانتحار . وقد يظن ان الانتحار يتبع الثورة – ولكن ذلك ظن خاطىء . لأنه لا يمثل النتيجة المنطقية للثورة ، وانما هو العكس ، وذلك بموجب القبول الذي يفترضه مقدماً . فالانتحار ، مثل القفزة ، مقبول حين يكون متطرفاً . كل شيء ينتهي ويعود الانسان الى تاريخه الاساسي . انه يرى مستقبله – ذلك المستقبل الفذ البشع – وهو يهرع اليه . والانتحار ، بطريقته ، يحل اللاجدوى . انه يضيق الخناق على اللاجدوى بنفس الموت .

ولكنني اعرف انه من اجل ان يظل المرء حياً ، لا يمكن حل اللاجدوى . انه يتخلص من الانتحار الى الحد الذي يكون فيه ، في الوقت نفسه ، يقظة ورفضاً للموت . انـــه ، في الحد المتطرف من الافكار الاخيرة للانسان المحكوم ، رباط الحذاء الذي يراه ، رغم كل شيء ، على بعد عدة ياردات ، على حافة سقطته المدوخة . والحق ان نقيض الانتحار هو الانسان المحكوم عليه بالموت .

تلك الثورة تهب الحياة قيمتها ، وحين تنتشر لتشمل طول الحيـــاة كله ، فانها تهب تلك الحياة روعتها . والشخص الذي لا تحجب رؤيتـه الحجب لا يجد منظراً ابهى من منظر الادراك الذي يعالج واقعـاً هو وراء حدوده . وليس هنالك ما يضارع بصر الكبرياء البشري ، كما ان محاولة الانتقاص منه لا تجدي نفعـاً . والضبط الذي يفرضه الذهن على نفسه ، والارادة المستدعاة من لا شيء ، والصراع وجهاً لوجه ، كل تلك الامور تتميز بصفـات غير عادية . وافتقـــار ذلك الواقع الذي تؤلف لابشريته روعة الانسان هو امر اقرب الى افتقار الانسان نفسه . وهنا افهم لماذا اجد ان العقائد التي تفسر لي كل شيء تضعفني انا في الوقت نفسه . انها تخفف عني عبء حياتي ، بيد انه من الواجب عليّ ان احمل هذا العبء وحدي . وفي هذه الحالة لا استطيع ان اتصور ان الميتافيزيكية الشكوكية يمكن ان ترتبط باخلاقية النبذ .

الادراك والثورة ، هذان الرفضان هما نقيضا النبذ والتخلي . وكل شيء غير مستسلم ، ومنفعل في القلب البشري يسرع بها ، على النقيض ، بحياته هو . ومن الامور الجوهرية انّ يموت الانسان بغـــير رضاه وبدون ان

يكون ذلك بارادته . فالانتحار هو تبرؤ . والانسان اللاجدي لا يستطيع إلا ان يستنفد كل شيء الى نهايته المرة ، ويفرغ نفسه . والتفاهة هي توتره المتطرف ، وهو يحافظ على ذلك باستمرار بالجهود الذي يبذله وحده ، لأنه يعرف ـــه في ذلك الادراك ، وبتلك الثورة اليومية ، انما يقدم البرهان على حقيقته الوحيدة ، التي هي التحدي . هـــذا يمثل النتيجة الاولى .

* * *

واذا كنت سأظل في ذلك الموقف المعـــد سابقاً ، الذي يتألف من الخروج بكل الاستنتاجات ، (ولا شيء غيرها) ، تلك الاستنتاجات التي تشتمل عليها الفكرة المكتشفة حديثاً ، فانني أواجه بذلك تعارضاً ثانياً . ولكي أظل مخلصاً لتلك الطريقة ، فليس لديّ ما يمكنني ان افعله بالنسبة لمشكلة الحرية الميتافيزيكية . ان معرفة كون الانسان حراً او غير حر ، أمر لا يهمني . أستطيـــع فقط ان أجرب حريتي أنا . ولا استطيـع ، بالنسبة لحريتي هذه ، ان احصـــل على أفكار عامة ، وانما على بعض المدارك الواضحة القليـلة . ان مشكلة ـــ الحرية بذاتها ـــ هي مشكلة لا لا معنى لها . لأنها مرتبطة بطريقة مختلفة بمشكلة الله . ان معرفة كون الانسان حراً او غير حر تشتمـل على معرفة ما اذا كان له سيد . واللاجدوى المتعلقة بهذه المشكلة تنبثق من ان الفكرة ذاتها التي تجعـل مشكلة الحرية ممكنة تسلبها في الوقت نفسه من كل معناها . لأنه بوجود الله لا تكون هنـــالك مشكلة الحرية بقدر ظهور مشكلة الشر . وانت

تعرف بديل ذلك : فنحن اما ان نكون غير أحرار وان يكون الله القوي القوي مسؤولاً عن الشر ، او ان نكون أحراراً ومسؤولين ، ولكن الله ليس قوياً قويا . ولم تضف براعة وحجج البـــاحثين شيئاً جديداً ، كما انها لم تنقص شيئاً من حدة هذا التناقض .

ولهذا السبب لا يمكنني ان أحسار في تعظيم ، او تعريف ، فكرة تختفي وتفقد معناها حالما تخرج عن اطار الاشارة الى تجربتي الفردية . انني لا أستطيع ان أفهم اي نوع من الحرية يمكنني ان أحصل عليه من كائن أسمى ، فلم أعد أميز بين الطبقات . والمفهوم الوحيد الذي أستطيع ان أحصل عليه للحرية هو مفهوم السجين او الفرد وسط الدولة . والحرية الوحيدة التي أعرفها هي حرية التفكير والفعالية . فاذا ألغت اللاجدوى كل فرصي في الحرية الأبدية ، فانها من الناحية الاخرى تعيد وتنظم حرية فعاليتي . وهذا الحرمان من الأمل والمستقبل يعني زيادة في امكانيـــات استحصالي الحاضر .

يعيش الانسان العادي ، قبل مواجهته اللاجدوى ، بالغايات ، بالاهتمام بالمستقبل ، او بالتبرير (بصرف النظر عمـا هو او ماذا) . انه يزن فرصه ، ويؤمل في – يوم ما – ، سواء كان ذلك تقاعــده او جهود أبنائه . وهو ما يزال يظن أنه من الممكن توجيه شيء ما في حياته . والحق انه يتصرف وكأنه حر ، حتى لو كانت كل الحقائق تناقض تلك الحرية . ولكن الأمور كلهـا تنقلب رأساً على عقب بعد اللاجدوى . اما تلك الفكرة ، – انني أكون – وطريقتي في التصرف وكأن لكل شيء معنى ، حتى اذا كنت أحياناً أقول انه لا معنى هنـالك في كل

شيء » – فكل ذلك يصبح كاذباً بطريقة مدوخـة ، بلاجدوى الموت المتوقع . والتفكير في المستقبل ، اي وضع الغـــايات ، وتفضيل امور معينة – ذلك كله يفترض مقدماً اعتقـاداً بالحرية ، حتى اذا كان المرء في بعض الأحيان يتأكد من أنه لا يشعر بها . بيد انني في تلك اللحظة أدرك جيداً ان الحرية هي أسمى ، الحرية التي ستكون ، والتي تستطيع وحدها ان توفر أساساً لحقيقة ما ، ليست موجودة . الموت هو الواقع الوحيد . أما بعد الموت ، فالأمر يكون أسوأ . فلست حتى ذلك حراً في ادامة وابقاء نفسي ، وانما أنا عبد ، وفوق اي شيء آخر ، عبـد بدون أمل في الثورة الأبدية ، بدون اي لجوء الى الاحتقـــار . ومن الذي يستطيع ان يبقى عبداً بدون ثورة ، وبدون احتقار ؟ وأية حرية يمكن ان تكون هنـــالك ، بالمعنى الأتم ، بدون التأكيـد على أبديتها ؟

ولكن الانسان اللاجدي يدرك في الوقت نفسه انـه كان حتى الآن مرتبطاً بادعائه ذاك بالحرية . وكان يعيش على وهم ذلك الادعاء . لقد عرقله ذلك من ناحية معينة . وقد كيّف نفسه مع متطلبات غاية معينة يريد تحقيقها ، الى المدى الذي تصور به غايته في الحيـاة ، وصار عبد حريتـه . وهكذا فلا يمكنني ان أتصرف بأكثر من كوني الوالد (او المهندس ، او زعيم الأمـة او الكاتب في دائرة البريد) الذي أعددت نفسي لكي أكونه . انني أظن انني استطيع ان أختار ان أكون ذلك ، وليس شيئاً آخر . والحق ان ظني هذا يتم بصورة غير مدركة . ولكنني أدعم ادعائي في الوقت نفسه بمعتقدات من هم حولي ، بفرضيات محيطي البشري (فالآخرون متأكدون من كونهم احرارا ، وتلك الحالة المبهجة

تصيب بالعدوى) ! ومهما ظل المرء بعيداً عن أية فرضية ، أخلاقية او اجتماعية ، فانه يتأثر بها جزئياً ، بل انه ، بالنسبة لأفضلها (فهنالك فرضيات جيدة واخرى رديئة) يكيف حياته وفقاً لها . وهكذا فان الانسان اللاجدي يدرك أنه لم يكن حراً بالفعل . ولأوضح اكثر ، فأقول انه الى المدى الذي آمل به ، او الذي أقلق به بشأن حقيقة قد تكون نقية بالنسبة لي ، بشأن طريقة في الكينونة او الخلق ، الى المدى الذي أرتب به حياتي وأثبت بذلك انني أقبل ان يكون لها معنى ، فانني أخلق لنفسي حواجز أضع حياتي بينها . انني أميل بالفعل الى عدد كبير من بيروقرطيي الذهن والقلب الذين يملأونني فقط بالاشمئزاز ، والذين كان اثمهم الوحيد ، كما أرى الآن بوضوح ، انهم أخذوا حرية الانسان مأخذاً جاداً .

اللاجدوى تعلمني شيئاً بهذا الخصوص : انه ليس هنالك مستقبل . ومن الآن فصاعداً ، سيكون هذا هو سبب حريتي الداخلية . وسأستخدم مقارنتين هنا . ولنبدأ بالمتصوفين ، فهم يجدون الحرية بالتخلي عن انفسهم . فبفقدانهم انفسهم في الههم ، وبتقبلهم قواعده ، يصبحون احراراً سراً . وهم بالعبودية التي يتقبلونها طوعاً ، يحصلون على استقلال اعمق . ولكن ما الذي تعنيه تلك الحرية ؟ من الممكن ان يقال ، قبل اي شيء آخر ، انهم **يشعرون** بانهم احرار بالنسبة لأنفسهم ، ولكنهم ليسوا احراراً بمعنى التحرر . والانسان اللاجدي ، كذلك الذي يتجه تماماً الى الموت (الذي اعتبره هنا أشد الامور اللاجدية وضوحاً) يشعر بالانطلاق من كل شيء خارج ذلك الانتباه المنفعل المتركز فيه . انه يتمتع بالحرية بالنسبة للقواعد المألوفة . ويمكننا ان نرى هنا ان الافكار المبدئية

للفلسفة الوجودية تحتفظ بكل قيمتها . والعودة الى الادراك ، اي الخلاص من نوم الحياة اليومية ، تمثل الخطوات الاولى نحو الحرية اللامجدية . ولكن ذلك يشير الى التبشير الوجودي ، بالاضافة الى تلك القفزة الروحية التي يغفلها الادراك أساسياً . وبنفس الطريقة (وهذه هي المقارنة الثانية) ، فان عبيد الماضي لم يكونوا ملك انفسهم . ولكنهم عرفوا تلك الحرية التي تتألف من عدم الشعور بالمسؤولية [1] . فان للموت يدين نبيلتين ايضاً ، اذ انهما بينا تسحقان ، فانهما تهبان الحرية .

ان الحيرة في ذلك اليقين الذي لا قرارة له ، والشعور بعد ذلك بالبعد الكافي عن الحياة بحيث يستطيع المرء ان يزيدها ويراها بنظرة اوسع – هذا كله يشتمل على مبدأ التحرير . ولمثل هذا الاستقلال الجديد حد زمني معين ، كأية حرية من حريات الفعالية . ولكن هذا لا يمنح صكاً بالابدية ، وإنما يحل محل اوهام الحرية ، التي انقطعت كلها بالموت . ان المصير الحاضر المقدس الذي يتوفر للمحكوم بالاعدام الذي تفتح امامه ابواب السجن في فجر مبكر معين ، ذلك اللااهتمام الذي لا يصدق بالنسبة لكل شيء ما عدا لهب الحياة الخالص – هنا يتضح ان الموت والتفاهة هما مبادىء الحرية الوحيدة المعقولة : تلك التي يستطيع القلب البشري ان يجربها ويعيشها . وهذه هي النتيجة الثانية . وهكذا

---

(١) انني معنى هنا بمقارنة الحقائق ، وليس باعتذار الضعة . فالانسان اللامجدي هو عكس الانسان الراضي .

يرى الانسان اللامجدي كوناً ملتهباً خالياً من الشعور ، شفافاً ومحدوداً ، لا شيء فيه ممكن ، ولكن يعطى فيه كل شيء ، ووراءه يكون كل شيء انهياراً ولا شيئية . يستطيع حينئذ ان يتقبل مثل هذا الكون ويستمد منه قوته ، ورفضه الامل ، والدليل الراسخ على حياة خالية من التعزية .

* * *

ولكن ماذا تعني الحياة في مثل هــــذا الكون ؟ لا شيء في الوقت الحاضر ، ولكنها تعني اللاإكتراث بالنسبة للمستقبل ، والرغبة في استنفاد كل ما يعطى . ان الاعتقاد بمعنى الحياة يعني دائماً ميزاناً للقيم ، واختياراً ، وهو يعني تفضيلنا . والاعتقاد باللاجدوى ، طبقـــاً لتعريفاتنا ، يعـلم العكس . ولكن هذا يستحق ان نبحثه .

ان معرفة ان الانسان يستطيع او لا يستطيع ان يعيش بدون نقض هو كل ما يهمني . انني لا اريد ان اخرج من عمقي . فـاذا تم اعطائي هذا المظهر الحياتي ، فهل استطيع ان أكيف نفسي له ؟ والآن ، فـان الاعتقاد باللاجدوى ، بمواجهة هذا الاهتمام الخاص ، هو امر يشبه استبدال عدد التجارب بنوعيتها . فاذا اقنعت نفسي بأنه ليس لهـذه الحياة من مظهر آخر غير مظهر اللاجدوى ، واذا شعرت بأن توازنها كلهـا يعتمد على تلك المعارضة الدائمة بين ثورتي المدركة والظلام الذي تصارع فيه ، واذا أقررت بأن حريتي ليس لها اي معنى الا بعلاقتها بالمصير المحدود ، فيجب عليّ ان اقول ان المهم ليس افضل العيش وإنمـا اشده . وليس

لي ان اتساءل عما اذا كان ذلك عادياً او مثيراً للاشمئزاز ، بديعاً او كريهاً . انني هنا وبصورة نهائية أتخلى عن احكام القيمة من اجل الاحكام الحقيقية . وعليّ فقط ان استخرج النتائج مما يمكنني ان أراه ، وألا اجازف بما هو فرضي . لأنني اذا فرضت ان العيش بهذه الطريقة ليس امراً مشرفاً ، فان التصرف الصحيح الحقيقي هو الذي سيدفعني الى ذلك الموقف غير المشرف .

أشد الحياة ، الحق ان هذه القاعدة ، بمعناها الواسع ، لا تعني شيئاً . انها تتطلب تعريفاً . ويلوح انها تبدأ بأن فكرة العدد لم يتم بحثها بصورة كافية . ذلك لأنها قد تتطلب حصة كبيرة من التجربة البشرية . وليس لقاعدة الانسان في السلوك ، ولميزان قيمه ، اي معنى الا خلال عدد وتنوع التجارب التي توفر له ان يراكمها . والآن ، فان ظروف الحياة الحديثة تفرض على اغلبية البشر نفس العدد من التجارب ، وبالتالي نفس التجربة العميقة . ثم انه لا بد ان يكون هنالك دائماً اعتبار لمساهمة الفرد الطوعية ، العنصر – المعطى – فيه . ولكنني لا استطيع ان احكم على ذلك ، ودعني اكرر ان قاعدتي هنا هي ان استمر مع الدليل المباشر . انني ارى ، اذن ، ان الميزة الفردية في نمط مألوف عام من الاخلاق لا تكمن في الاهمية المثالية الخاصة بمبادئه الاساسية ، وانما في جو التجربة الممكن قياسها . ولكي نوسع الامر قليلا ، نجد أنه قد كان لليونانيين القدماء نمط الكسل والفراغ ، تماماً كما نتعلق اليوم بنمط العمل ثماني ساعات . ولكن اشخاصاً كثيرين بين اولئك الذين تمثل حياتهم أشد المأساة يجعلوننا نتنبأ بأن تجربة أطول تغير قائمة القيم هذه . انهم يجعلوننا نتخيل ذلك المغامر في الحياة اليومية الذي يحطم كل الارقام

القياسية خلال عدد التجارب وحسب (انني أتعمد استخدام هذا المصطلح الرياضي) ، وهكذا يفوز بنمط اخلاقيته هو[1] . ولكن دعنا نتجنب الرومانتيكية ونسأل انفسنا فقط ماذا يمكن ان يعني مثل هذا الموقف بالنسبة لانسان قرر في ذهنه ان يقبل رهانه وان يلاحظ بشدة مـا يعتقد انه يمثل قواعد اللعبة ؟

ان تحطيم كل الارقام القياسية هو اولاً ؛ وقبـل أي شيء آخر ، مواجهة العالم في اوسع ما يمكن ان يتوفر من المناسبات . فكيف يمكن ان يتم هذا بدون متناقضات ، اللعب بالكلمات ؟ لأن اللاجدوى ، من ناحية ، تعلم المرء ان كل التجارب غير مهمـة ، كما انهـا من الناحيـة الاخرى تحفزه نحو اكبر عـدد من التجارب . فكيف لا يفعل المرء كما فعل عـدد كبير من اولئك الاشخاص الذين تحدثت عنهم — فيختـار شكل الحياة الذي يوفر له اعظم ما يمكن الحصول عليـه من تلك المادة البشرية ، وبذلك يأتي بميزان للقيم يدعي المرء من الناحية الاخرى بأنه يرفضه ؟

ثانية ، نجد أن اللاجدوى وحياتها المتناقضة هي التي تعلمنا . والخطأ هو الظن بأن عدد التجارب ذاك يعتمد على ظروف حياتنـا ، في حين

---

(١) العدد احياناً يؤلف النوع . واذا كنت سأتقبل آخر ما أعادت وضعه النظرية العلميـة فانني سأجد ان المادة كلهـا تتألف من مراكز للطاقة ، وكثرة او قلة هذه المراكز تجعل خصائص اكثر او أقل بروزاً وأهمية . فبليون من الايونات وايون واحد يختلفان ليس بالعدد وحسب وانما بالنوع ايضاً . ومن السهل نقل ذلك الى نطاق التجربة البشرية .

أنه يعتمد علينا فقط . وعلينا هنا ان نكون مبالغين في التبسيط . فالعالم يقدم لشخصين يعيشان نفس العدد من السنوات نفس العدد من التجارب . والامر يتوقف علينا نحن لكي ندركها . ان يقظة المرء لحياته، لثورته ، لحريته ، الى أبعد مدى ، هو العيش ، الى أبعد مدى . وحيثما يتحكم الوضوح لا يكون ميزان القيم مجدياً . دعنا نبسط الامر اكثر . دعنا نقل ان العقبة الوحيدة ، النقص الوحيد الذي سيسد ، يتألف من الموت قبل الاوان . وهكذا فلا عمق ، ولا عاطفة ، ولا انفعال ، ولا تضحية يمكن ان تساوي في عيني الانسان اللاجدي (حتى اذا كان يريد ذلك) بين حياة مدركة تستمر اربعين سنة ، ووضوح ينتشر ليشمل ستين سنة [1] . الجنون والموت هما الامران اللذان لا يستطيع ان يفعل شيئاً أمامها . والانسان لا يختار . واللاجدوى والحياة الاضافية التي تتضمنها ، لذلك لا تعتمدان على ارادة الانسان ، وانما على نقيض تلك الارادة ، أي الموت [2] . واذا نحن وزنا كلماتنا بعناية فاننا لنجد ان المسألة هي مسألة حظ [3] . وعلى المرء فقط ان يكون قادراً على

---

(١) نفس التأمل بالنسبة لفكرة مختلفة ، تلك هي فكرة اللاشيئية الابدية. وذلك لا يضيف شيئاً ولا ينقص شيئاً قط من الواقع . ونجد في التجربة السايكولوجية للاشيئية ان اعتبار ما سيحدث خلال ألفي سنة هو الذي يجعل للاشيئيتنا معنى . واللاشيئية الابدية ، في واحد من مظاهرها ، تتألف بالضبط من مجموع الحياة التي هي ليست حياتنا نحن .

(٢) هذه الارادة هي الوسيط هنا فقط ، وهي تميل الى الاحتفاظ بالادراك . وهي تعطي ضبطاً للحياة ، وهذا أمر جميل .

(٣) اصطدام السيارة بكامو وموته في مثل هذه السن أمر يضفي صفة التجربة حتى على هذا الجانب من أفكاره ، الذي تصعب تجربته بدون حدوث الموت اللاجدي ، وبذلك يكون قد جرب كل ما قاله بالفعل . — المترجم .

تقبل هذا . ولن يكون هنالك أي بديل قط لعشرين سنة من الحياة والتجربة .

ادعى اليونانيون القدماء ، مع ما يتجلى في هذا من تعارض في مثل هذا السباق اليقظ ، بأن أولئك الذين ماتوا في شبابهم كانوا يتمتعون بحب الآلهة . وهذا حقيقي فقط اذا كنت مستعداً للاعتقاد بأن دخول عالم الآلهة المضحك يعني فقدان أبدع المتع وأشدها نقاء ، اي الشعور ، والشعور على هذه الارض . ان الحاضر ، وتتابع الحاضر ، وتتابع الحاضر أمام النفس المدركة دائماً ، هما المثل الأعلى للانسان اللاجدي . ولكن عبارة – المثل الاعلى – تلوح زائفة في هذا المضار . الامر لا يتعلق حتى ولا باستعداده الكامن ، وانما بالنتيجة الثالثة من تعليله العقلي . ويعود التأمل في اللاجدوى ، بعد ان يكون قد بدأ من يقظة معذبة للابشري ، في النهاية الى قلب ألسنة اللهب المتوقدة في الثورة البشرية [1] .

وهكذا فانني أستنتج من اللاجدوى ثلاث نتائج ، وهي ثورتي ، وحريتي ، وانفعالي . وبواسطة فعالية الادراك فقط أحول الى قاعدة للحياة ما كان سيصبح دعوة للموت – وأنا أرفض الانتحار . انني أعرف ،

---

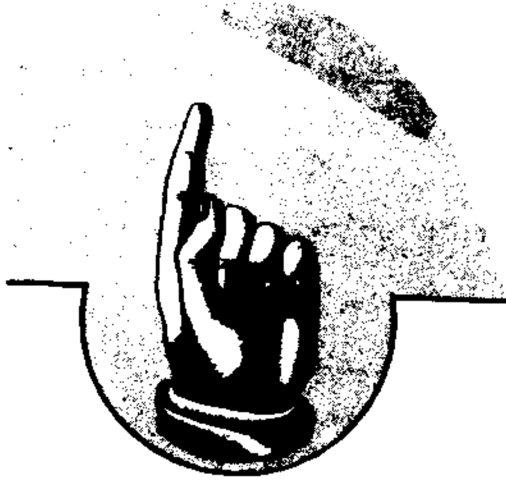
(١) ما يهم هو التماسك . ونحن نبدأ هنا بقبول العالم . ولكن التفكير الشرقي يبشر بأن المرء يستطيع ان يستمر في نفس الجهود المنطقي بالاختيار ضد العالم . وهذا هو أمر مشروع ، وهو يهب البحث حجميته وحدوده . بيد انه حين يتم تتبع نفي العالم بنفس القوة فان المرء يحقق (بالنسبة لبعض المدارس الخاصة بالفلسفات الهندوسية الفيدية) نتائج مماثلة فيما يخص لااكتراث الاعمال ، مثلاً . ونجد أن جان غرنييه يؤسس في كتابه الهام – الاختيار – فلسفة صحيحة – للااكتراث –

حقاً ، الذبذبة الكئيبة التي تتردد في هذه الايام . ولكن لديّ كلمة أريد ان أقولها : انها ضرورية . فحين يكتب نيتشه : — يلوح بوضوح ان الشيء الرئيسي في السماء وعلى الارض هو الاطاعة دائماً وفي اتجـــاه واحد : فبعد أمد طويل سينتج شيء يستحق من أجله ان تعاش الحياة على هذه الارض ، شيء مثل الفضيلة ، او الفن او الموسيقى او الرقص او العقل او الذهن — شيء يحول الاشكال ، شيء رقيق ، مجنون ، او مقدس ، — فانه يشير بوضوح الى قاعدة أخلاقية بارزة متميزة حقاً . ولكنه يشير ايضاً الى طريق الانسان اللامجدي . فاطاعة اللهب هي في الوقت نفسه أسهل وأصعب شيء يمكن عمله . وعلى كل حال فمن الخير للانسان ان يحكم على نفسه بين حين وآخر . وهو وحيد في استطاعته ان يفعل ذلك .

ويقول ألان — ان الصلات تكون حين يهبط الليل على الفكر — . ولكن الذهن يجب ان يواجه الليل — وهـــذا القول الأخير هو جواب المتصوفين والوجوديين . أجل ، حقاً ، ولكن ليس ذلك الليل الذي يولد تحت الأجفان المقفلة وخلال ارادة الانسان فقط — الليـــل المظلم الموحش الذي يستدعيه الذهن ليغوص فيه . فاذا كان واجباً على الذهن ان يواجه ليلاً ، فليكن ليل اليأس الذي يظل واضحاً — الليل القطبي ، يقظة الذهن ، الذي يبزغ فيـــه بعد ذلك السطوع الابيض العذري الذي يرسم الخطوط لكل موضوعي على ضوء الادراك . وعنـــد تلك الدرجة يواجه التساوي فهماً منفعلاً متحمساً . ولا تعود المسألة بعد ذلك مسألة الحكم على القفزة الوجودية . وانمـــا تستعيد مكانها وسط مختلف ألوان المواقف البشرية القديمة . لأنه اذا كان المشاهد مدركاً ، فان تلك القفزة

ستظل تلوح له لاعجدية . وبقدر ما تظن القفزة انها تحل التعـارض ، فانها تعيده الى حدته . وهنا يكون كل شيء محتدماً . وهنـا يستعيد كل شيء مكانه ويولد العالم اللاعجدي من جديد بكل روعته واختلاقه .

ولكن التوقف أمر سيء ، وكذلك فمن الصعب الاكتفـاء بطريقة واحدة في الرؤية ، والاستمرار بدون التعارض ، ولعل التعـارض هو أدق القوى الروحية . وما سبق يعرّف فقط طريقة في التفكير . بيد ان المسألة هي ان يعيش المرء .



الانسان اللامجدي

« اذا آمن ستافروجين فهو لا يظن انه يؤمن .
واذا لم يؤمن فهو لا يظن انـــه لا يؤمن . »

— المأخوذون — لدوستويفسكي

قال غوته « اختصاصي هو الزمن » . وهذا هو حقاً الكلام اللامجدي . ترى ما هو الانسان اللامجدي ؟ انه من لا يفعل شيئاً بالنسبة للأبدية ، رغم أنه لا ينفيها . وليس هذا لأن الحنين غريب عنـه ، ولكنه يفضل شجاعته وتعليله العقلي . فشجاعته تعلمـــه ان يعيش بدون نقض ، وان يحتمل ما لديه ، وأما تعليله العقلي فانـه يخبره بحدوده . وبوثوقـــه من حريته المحدودة مؤقتاً وفراغ مستقبله ، وادراكه الفـاني ، فانـه يعيش مغامرته ضمن فترة حياته . هذا هو حقله . وهذه هي فعاليته التي يحميها من أي حكم عليها غير حكمه هو . فحيـاة أعظم لا يمكن ان تعـني بالنسبة له حياة أخرى . لأن هـذا يكون امراً غـير عادل . ولست أتحدث هنا حتى ولا عن تلك الأبدية التافهة التي تسمى الاجيال القادمة . لقد اعتمدت مدام رولان على نفسها ، وتم تلقين ذلك الاندفاع الاهوج درساً . وصار يسعد الاجيال ان تقتطف عبارتهـا ولكنها نسيت كيف

تحكم عليها . وهكذا فان مدام رولان لا تكترث بالاجيال القادمة .

ولا يمكن ان تكون هنالك مسألة التقدم الأخلاقي . لقد رأيت أناساً يتصرفون تصرفاً سيئاً وهم يحملون اخلاقية عظيمة . وانني ألاحظ في كل يوم ان الأمانة لا تحتاج الى اية قواعد أو قوانين . هنالك شريعة اخلاقية واحدة فقط يمكن أن يقبلها الانسان اللامجدي ، تلك التي لا تنفصل عن الله : تلك المفروضة فرضاً . ولكن يحدث انه يعيش خارج ذلك الله . اما بالنسبة للاخلاقيات الأخرى (أعني اللااخلاقية أيضاً) ، فالانسان اللامجدي لا يرى فيها شيئاً غير التبريرات وليس لديه ما يبرره . انني أبدأ هنا من مبدأ براءته .

هذه البراءة تخيف . ان ايفان كارامازوف يقول باستغراب : « كل شيء مسموح » . وهذا ينطق باللاجدوى أيضاً ، بشرط ألا نأخذ ذلك بالمعنى العادي . ولست أعرف هل تمت الاشارة بصورة كافية الى ان ذلك ليس انطلاقاً للانتعاش أو الغبطة ، وانما هو اعتراف مرير بحقيقة . ثم ان اليقين من اله يهب الحيـــاة معنى أمر يفوق بكثير في جاذبيته القدرة على التصرف تصرفاً سيئـــاً بصحبة الأمان من العواقب . ولن يكون الاختيار بين هذين الأمرين صعباً . ولكن ليس هنالك اختيـار ، وهذا الجانب المرير . ان اللاجدوى لا تحرر وانما هي ترتبط . وهي لا تخول كل الفعاليات . وعبارة « كل شيء مسموح » لا تعني انه لا شيء هنالك ممنوع . وتضفي اللاجدوى تعادلاً على نتائج تلك الفعاليات . انها لا تمتدح الجريمة ، لأن هـــذا سيكون طفولياً ، ولكنها تميل الى لوم تفاهتهـا . فـاذا كانت التجارب كلهـا لا مكترثة فـان تجربة الواجب

ستكون مشروعة كأية تجربة اخرى . فالمرء يستطيع ان يكون فاضلاً عبر خرافة .

ترتكز كل انظمة الاخلاق على ان للفعالية نتائج تجعلها مشروعة او تلغيها . فالذهن المشبع باللاجدوى يحكم فقط بأن تلك النتائج يجب ان تبحث بهدوء . انه مستعد لدفع الثمن . وبعبارة اخرى ، قد يكون هنالك اشخاص مسؤولون ، ولكن ليس هنالك مذنبون ، في رأي هذا الذهن . وفي اقصى الحالات ، يوافق مثل هذا الذهن على استخدام التجربة الماضية اساساً لفعالياته المستقبلة . الزمن يطيل الزمن ، والحياة تخدم الحياة . وفي هذا الحقل المحدود ، وكذلك المحمل بالامكانيات ، يلوح للانسان اللاجدي انه لا يمكن التنبؤ بأي شيء في نفسه ، ما عدا وضوحه . فاية قاعدة اذن يمكن ان تنبثق من النظام اللامعقول ؟ الحقيقة الوحيدة التي قد يلوح له انها تعلمه شيئاً هي ليست من الأمور الشكلية . انها تأتي الى الحياة وتتفتح في البشر . ولا يستطيع الذهن اللاجدي ان يتوقع القواعد الاخلاقية في نهاية تعليله العقلي كما يتوقع ان يجد التوضيحات وانفاس الحياة البشرية . والصور القليلة التالية هي من هذا النمط . انها تطيل اللاجدوى باعطائها موقفاً معيناً وكذلك باعطائها حرارتها .

هل احتاج الى تطوير الفكرة القائلة بان المثل ليس بالضرورة مثلاً يجب اتباعه (واقل من ذلك ان امكن في العالم اللاجدي) وبأن هذه التوضيحات ليست بالتالي نماذج ؟ بالاضافة الى ان هذا يتطلب استعداداً معيناً فانه ، مع اعتبار الامور الاخرى ، يكون المرء مضحكاً حين يستنتج من روسو ان الانسان يجب ان يسير على اربع ، وحين يستنتج من

نيتشة ان الانسان يجب ان يسيء معاملة امه . وقد كتب كاتب حديث يقول : « انه لامر جوهري ان يكون المرء لا مجدياً ، ولكن ليس من الضروري ان يكون مخدوعاً . » ويمكن للمواقف التي سأتناولها ان تحتفظ لنفسها بمعانيها الكاملة فقط عبر بحث نقائضها . فالكاتب الصغير في دائرة البريد هو بمنزلة الفاتح اذا كان الادراك صفة مشتركة بينهما . وفي هـــذا المجال تكون التجارب كلها لا مكترثة . وهنالك بعض التجارب التي هي اما ان تخدم الانسان او لا تخدمه اذا كان مدركاً . والا فليس لذلك اهمية : لان فشل الانسان يشتمل على حكم ، ليس على الظروف ، وانما على نفسه .

اني اختار فقط الناس الذين لا يهدفون الا الى توسيع انفسهم ، او الذين أرى انهم يقومون بتوسيع انفسهم . وليس لهذا مضامين اخرى . وهنا اريد ان اتحدث فقط عن عالم تكون فيه الافكار كالحياة خاليـة من المستقبل . فكل ما يجعل الانسان يعمل ويستثار يستفيد من الأمل. والفكر الوحيد الذي هو ليس غير حقيقي هو فكر عقيم . وفي عـالم اللاجدوى تقاس قيمة فكرة ما او حياة ما بعقمها .

الدون جوانيه :

إذا كان كافياً ان يحب المرء ، فان الامور ستكون سهلة جداً . فكلما احب اكثر زادت قوة اللاجدوى . ولا ينتقل دون جوان من امرأة الى اخرى لانه لا يملك الحب . ومن المضحك تصويره متصوفـاً يبحث عن الحب الاكمل . ولكن ذلك حقاً لانه يحبهن بنفس الانفعال وفي كل مرة بكل نفسه بحيث انه يجب ان يكرر عطاءه وبحثه العميق . ولهذا فكل

امرأة تأمل في ان تعطيه ما لم تعطه اياه اية امرأة اخرى . وهن في كل مرة مخطئات ، ينجحن فقط في جعله يشعر بالحاجة الى ذلك التكرار . فتقول واحدة منهن : « واخيراً اعطيتك الحب . » فهل يدهشنا ان يسخر دون جوان من هذا ؟ انه يقول : « اخيراً ؟ كلا ، وانما مرة اخرى . » ترى لماذا يكون ضرورياً ان يحب المرء حباً نادراً ليتوفر له ان يحب كثيراً ؟

* * *

ترى هل ان دون جوان مصاب بالسوداوية ؟ ليس هذا محتملا . ولن ألجأ الى تفصيل الاسطورة . ولكن تلك الضحكة ، والعجرفة المسيطرة ، والعبث وحب المسرح ، كلها امور واضحة مغبطة . وكل مخلوق مكتمل يميل الى مضاعفة نفسه ، وكذلك هو الامر مع دون جوان . ولكن للسوداويين سببين في ان يكونوا كذلك : هم لا يعرفون ، او انهم يأملون ودون جوان يعرف ، كما انه لا يأمل . وهو يذكر المرء بهؤلاء الفنانين الذين يعرفون حدودهم ولا يتخطونها ابداً ، وفي تلك الفترة الحرجة التي يقفون فيها موقفهم الروحي نجدهم يتمتعون بكل السهولة الرائعة التي يتصف بها العظام . وهذا هو النبوغ حقاً : الذكاء الذي يعرف حدوده . ودون جوان لا يعرف السوداوية الى حد الموت الجسدي . وفي اللحظة التي يعرف فيها ذلك ، تندفع ضحكة وتجعل المرء يغتفر كل شيء . لقد كان سوداوياً في اللحظة التي كان يأمل فيها . واليوم ، يجد على شفتي تلك المرأة المذاق المر ، المريح ، للمعرفة الوحيدة . مر ؟ قليلا جداً . ذلك النقص الضروري الذي يجعل في الامكان ادراك السعادة .

من الزيف ان نحاول ان نرى في دون جوان رجلاً ربي على ايدي رجال الدين . فالأمر السخيف الوحيد بالنسبة له هو الأمل في حياة اخرى . وهو يثبت ذلك لانه يقامر بتلك الحياة الاخرى ضد السماء نفسها . فالتشوق الى الرغبة التي يقتلها الاشباع ، ومسألة الرجل العاجز جنسياً ، امور لا تخصه . تلك هي من خصائص فاوست الذي آمن بالله ايماناً كافياً ليجعله يبيع روحه للشيطان . أما بالنسبة لدون جوان فالأمر أشد بساطة . ان « برلادور » مولينا يرد دائماً على التهديدات بالجحيم بقوله : « أية مهلة مطولة تعطيني ! » ، ومـا يأتي بعد الموت تافه ، واي تعاقب طويل للايام لمن يعرف كيف يكون حياً ! لقد تاق فاوست الى آلهة الأرض ، ولم يكن على الرجل المسكين الا ان يمد يده . وبلغ به الأمر انه باع روحه في الوقت الذي لم يكن في وسعه ان يسعدها فيه . أما بالنسبة للشبع فان دون جوان بالعكس يصر عليه ، واذا ترك امرأة فان ذلك ليس لانه لم يعد يشتهيها بصورة مطلقة . فالمرأة الجميلة مرغوبة دائماً دائماً : ولكنه يشتهي اخرى ، ولكن كلا ، فهذا ليس الشيء نفسه .

تشبع هذه الحياة كل رغبة لديه ، وليس هنالك مـا هو أسوأ من فقدانها . وهذا الرجل المجنون هو رجل حكيم عظيم . ولكن الناس الذين يعيشون على الامل لا يترفون في هذا العـالم الذي يستسلم فيه العطف للكرم ، والحب للصمت الرجولي ، والمشاركة للشجـاعة المتفردة ، ويهرع الجميع الى القول بانه « كان ضعيفاً ، مثالياً ، او قديساً . » على المرء ان يقلل من شأن العظمة المهينة .

* * *

والناس تسيئهم بصورة كافية (او تلك الابتسامة ، ابتسامة المشاركة في الاثم ، التي تحط من قيمة ما تعجب بـه) خطب دون جوان وتلك الملاحظة ذاتها التي يستخدمها مع كل النساء . ولكن أهم الأشياء بالنسبة لمن يبحث عن العدد في مسراته هو اليقين من الثمار ، وما هي فائـــدة تعقيد كلمات السر التي وثق من نجاحها ؟ فلا أحد يصغي اليها . لا المرأة ولا الرجل . وانما يصغون الى الصوت الذي يتلفظ بها . ان تلك الكلمات هي القاعدة والتقليد والمجاملة ، وبعد ان تقال فلا بد من اتمـام الشيء الاشد أهمية . ودون جوان مستعد بالفعل لاتمام ذلك ، فلماذا يخلق لنفسه مشكلة في الأخلاق ؟ انه ليس مثل « مانيار » ميلوتز الذي يجلب على نفسه اللعنة بسبب رغبتــه في ان يكون قديساً والجحيم بالنسبة له شيء يستثار . ولديه جواب واحد فقط على الغضب المقدس . ذلك هو الشرف الانساني . انه يقول للقائد : « انا شريف ، وانني لأحافظ على عهدي لانني فارس . » ولكن من الخطأ الفاضح ايضاً ان نجعل منه لا اخلاقياً . وهو في هذا الصدد « كأي فرد آخر » ، يملك الشريعة الاخلاقية ، شريعة مـا يحب وما يكره . ويمكننا ان نفهم دون جوان فهمـــاً صحيحاً فقط بالاشارة الدائمة الى ما يرمز اليه بصورة عامة : المفسد العـــادي ورياضي الجنس . انه حقاً مفسد عادي .[1] والفرق الوحيد هو انه مدرك ، وهذا هو ما يجعله لا مجدياً . والمفسد الذي صار واضحاً ، لن يتغير بسبب كل ذلك . فالافساد شرطه في الحياة ، ولا يغير المرء الشروط والظروف أو يصبح افضل الا في القصص . ومع ذلك فيمكننا القول بأنه في الوقت

---

(١) بالمعنى الاكمل ، ومع اخطائه . فالموقف الصحيح يشتمل على الاخطاء ايضاً .

نفسه لا يتغير شيء قط ، ويتحول كل شيء . وما يدركه دون جوان في الفعالية هو اخلاقية العدد ، في حين ان القديس ، بالعكس ، يميل نحو النوع . وعدم الايمان بالمعنى العميق للاشياء امر من خصائص الانسان اللاعجدي . أما بالنسبة لتلك الوجوه الودية ، او التي يرسم عليها العجب فانه ينظر اليها ، ويخزنها ، ولا يتوقف عندها . والزمن يجاريه .فالانسان اللاعجدي هو الانسان الذي لا ينفصل عن الزمن . ودون جوان لايفكر في « جمع » النساء ، وانما يستنفد عددهن ويستنفد معهن فرصة في الحياة. « فالجمع » يسمو الى منزلة القدرة على عيش الماضي . ولكنه يرفض الاسف ذلك الشكل الاخر من اشكال الأمل . انه لا يستطيع ان ينظر الى الصور .

* * *

هل هو اناني بسبب كل ذلك ؟ ربما يكون كذلك ، بطريقته . ولكن من الضروري هنا ايضاً ان نتفاهم . فهنالك اولئك الذين وجدوا ليعيشوا واولئك الذين وجدوا ليحبوا . وسيكون دون جوان ميالاً الى قول ذلك على الاقل . ولكنه سيفعل ذلك بكلمات قليلة جداً لا يستطيع ان يختار اكثر منها . لان الحب الذي نتحدث عنه هنا يتلبس بلبوس اوهـــام الابدية . وكما يعلمنا اختصاصيو العاطفة كلهم ، فليس هنالك حب أبدي ، الا الحب المعرقل . وليست هنالك اية عاطفة بدون صراع . ومثل هذا الحب ينتهي فقط بالتناقض النهائي ، الموت . فأما ان يكون المرء فارتر او لا شيء . وهنا ايضاً ، توجد طرق عديدة للانتحار ، واحداها التخلي الكامل عن الذات وانكارهـا . ويعرف دون جوان ، كما يعرف اي فرد

آخر ، ان هذا يمكن ان يكون مثيراً . ولكنه واحد من القلائل الذين يعرفون ان هـــذا هو ليس الشيء المهم . وهو يعرف ايضاً ان اولئك الذين يديرون ظهورهم للحياة الشخصية عبر حب عظيم ربما يزيدون من غنى أنفسهم ، ولكنهم بالتأكيد يفقرون اولئك الذين اختارهم حبهم . فللأم او الزوجة العاطفية قلب مغلق بالضرورة ، لانه مبتعد عن العالم . عاطفة واحدة ، ومخلوق واحد ، ووجه واحد ، ولكن ذلك كله مستنفد وما يشغل دون جوان هو حب مختلف تماماً ، وهذا الحب هو التحرير . انه يجلب معه كل الوجوه في العالم ، وينبثق ارتعاش هذا الحب منمعرفته انه فان . لقد اختار دون جوان ان يكون لا شيئاً .

فالامر بالنسبة له هو ان يرى بوضوح . ونحن نعني بالحب ما يربطنـا بمخلوقات معينة فقط بالاشارة الى طريقة جمـاعية في الرؤية ، والكتب والاساطير هي المسؤولة عن تلك الطريقة . أما عن الحب فلست اعرف غير ذلك المزيج من الرغبة والانعطاف والذكاء الذي يربطني بهذا المخلوق أو ذاك . وهذا المزيج يختلف بالنسبة لشخص آخر . ولست املك الحق في ان اعطي تلك التجارب كلها بنفس الاسم . وهذا ايضاً يستثني المرء من خوض تلك التجارب بنفس الحركات . وهنا ايضاً ، يضاعف الانسان اللاجدي ما لا يستطيـع ان يوحده . وهكذا فهو يكتشف طريقة جديدة في الكينونة تحرره على الأقل كما تحرر اولئك الذين يقتربون منه . وليس هنالك حب نبيل الا ذلك الذي يدرك نفسه باعتبـاره قصير العمر ، واستثنائياً . وكل ذلك الموت ، والعودة الى الحيـاة ، مجتمعة فيما يشبه الحزمة ، تؤلف ازدهار الحياة بالنسبة لدون جوان . انها طريقته في العطاء

والاحياء . وأدع تقرير ما اذا كان المرء يستطيع ، او لا يستطيع ان يتحدث عن الانانية .

* * *

وهنا افكر في كل اولئك الذين يصرون بصورة مطلقة على ان دون جوان يجب ان يعاقب . ليس فقط في الحياة الاخرى ، وانما في هذه الحياة بالذات . انني افكر في كل تلك الحكايات والاساطير وضحكات السخرية من دون جوان حين يكون عجوزاً . ولكن دون جوان مستعد بالفعل . فليس تقدم السن وما يعنيه تقدم السن بالنسبة للرجل المدرك بالأمر المدهش . بل انه مدرك لانه لا يخفي رعب ذلك وما يشتمل عليه عن نفسه . لقد كان في اثينا معبد مخصص للشيخوخة . وكان الأطفال يؤخذون اليه . أما بالنسبة لدون جوان ، فكلما زادت سخرية الناس منه زاد بروز شخصه . وهو بذلك ينبذ الشخصية التي اضفاهاعليه الرومانتيكيون . فلا أحد يريد ان يسخر من ذلك الدون جوان المعذب الذي يثير العطف . انه يحظى بالرثاء ، فهل ستنفعه السماء نفسها ؟ ولكن ذلك ليس المسألة . ففي الكون الذي يلمحه دون جوان نجد ان السخرية هي ضمن ذلك الكون أيضاً . ولسوف يعتبر توجيه اللوم اليه امراً طبيعياً فتلك هي قاعدة اللعبة . بل ان من خصائص نبله انه تقبل كل قواعد اللعبة . ومع ذلك فهو يعرف انه على حق وانه ليس هنالك مجال لمعاقبته فالمصير ليس عقوبة .

تلك هي جريمته ، وكم من السهل ان نفهم لماذا يريد رجال الله ان

يوقعوا العقاب عليه . انه يحقق معرفة بدون اوهام ، وهذه المعرفة تنفي كل ما يبشرون به . فالحب والتملك ، والغلبة والاستنفاد - تلك هي طريقته في المعرفة . (وهنالك مغزى في تلك الكلمة الانجيلية التي تسمى الفعل الشهواني « معرفة » .) انه ألد أعدائهم ، الى درجة انه يهملهم . ويورد مؤرخ أن بورلادر الحقيقي مات مقتولاً بيد القسس الذين أرادوا « أن يضعوا حداً لافراط والحاد دون جوان الذي جعله مولده يوقن بالايمان » ثم اعلنوا ان الله قد صعقه ولم يثبت احد تلك النهاية الغريبة . كما لم يثبت أحد عكس ذلك . ولكنني استطيع ، بدون ان أتساءل عن امكانية ذلك ان اقول انه منطقي . واريد هنا فقط ان اتناول كلمة « مولد » وان أتلاعب بالكلمات : فقد كانت حقيقة العيش هي التي جعلته يؤكد براءته . ومن الموت فقط استوحى الذنب الذي صار اسطورياً الآن .

ترى ماذا يعني ذلك القائد الصخري اكثر من هذا ؟ ذلك التمثال البارد الذي انطلق يتحرك ليعاقب الدم والشجاعة اللذين تجرءا على التفكير؟ كل قوى العقل الأبدي ، والنظام ، والاخلاقية العامة ، والعظمة الغريبة المتمثلة في الله القادر على الغضب ، كل تلك الامور تتجلى فيه . ان تلك الصخرة الضخمة التي لا روح لها ، ترمز الى القوى التي نفاها دون جوان الى الابد . ولكن مهمة القائد تقف عند ذلك الحد . ويستطيع الرعد والبرق ان يعودا الى السماء الاصطناعية التي استدعيا منها . وتحدث المأساة الحقيقية بصورة منفصلة عنها . كلا ، فلم يواجه دون جوان موته بسبب يد صخرية . انني اميل الى الاعتقاد بالشجاعة الاسطورية ، بذلك الضحك المجنون الذي يصدر عن الانسان الصحيح فيثير به الهاً غير موجود .

ولكنني قبل اي شيء آخر ، اعتقد ان القائد لم يأت في تلك الليلة التي كان دون جوان ينتظر فيها عند انا ، وانه بعد منتصف الليل لا بد ان يكون الملحد قد شعر بالمرارة المرعبة ، مرارة اولئك الذين كانوا على حق بل انني لاتقبل وصف حياته الـذي قد يقول عنـــه انه دفن نفسه في النهاية في احـــد الاديار . وليس ذلك لان الجانب الاصلاحي من القصة يمكن ان يكون محتملاً ، اذ اية حماية راع يطلبها من الله ؟ وانما يرمز هذا الى النتيجة المنطقية من حياة مشبعة تماماً باللاجدوى ، والنهاية العابسة لوجود منصرف الى المباهج قصيرة العمر . وينتهي الاستمتاع الحسي الى الزهد . ومن الضروري ان ندرك انهما ربما يكونان مظهرين للحرمان نفسه . واية صورة رهيبة يمكننا ان نرسم أسوأ من صورة الرجل الذي يخونه جسده ، الرجل الذي لانه لم يمت في حينه ، يعيش المهزلة بينما هو ينتظر النهاية ، وجهاً لوجه مع ذلك الله الذي لا يعبده ، يخدمه كما خدم الحياة ، يركع امام الفراغ ، ويمد يده الى سماء بلا تعبير ، يعرف ايضاً انها بلا عمق ؟

انني أرى دون جوان في زنزانة احد تلك الاديار الاسبانية الضائعة بين التلال . واذا كان يفكر ويتأمل بأي شيء على الاطلاق فانه لا يتأمل في أشباح غرامياته الماضية ، وانما ، ربما عبر شق ضيق في الجـدار الذي تلفحه الشمس بحرارتها ، في سهل اسباني صامت ، في ارض نبيلة لا روح يرى فيها نفسه . ومع ذلك فيجب ان تنسدل الستارة على هذه الصورة السوداوية المتألقة . أما النهاية الاخيرة ، المنتظرة ولكن غير المرغوبة ، تلك النهاية الاخيرة ، تستحق الاحتقار .

* * *

الدراما :

يقول هاملت : « انها المسرحية ، وبها سأقبض على دخيلة الملك . و « اقبض » هي الكلمة حقاً ، لأن الدخيلة تتحرك بسرعة او تنسحب الى داخل الذات . ويجب القبض عليها وهي طائرة ، في تلك اللحظة التي لا يمكن الشعور بها الا بصورة ضعيفة ، والتي تنظر فيها الدخيلة الى نفسها نظرة خاطفة . والانسان العادي لا يستمتع بالتباطؤ ، وانما ، بالعكس ، يسرع به كل شيء الى الأمام . ولكن ، في الوقت نفسه ، لا يعجبه شيء مثل نفسه ، خاصة امكانياته . ومن هنا ينبع اهتمامه بالمسرح ، بالعرض ، حيث تقدم اليه مصائر عديدة ، وحيث يستطيع ان يتقبل الشعر ، دون ان يتقبل الاسى . وهنالك ، على الاقل . يمكن ادراك الانسان اللامفكر ، وهو يستمر في هروعه الى هذا الأمل او ذاك . ويبدأ الانسان اللاعجدى حين ينتهي ذاك ، حين يكف الذهن عن الاعجاب بالمسرحية ، ويدخل فيها . والدخول في كل اشكال الحياة تلك ، وتجربتها بكل تنوعها ، يسمو الى منزلة القيام بها جميعا . ولست أقول هنا ان الممثلين بصورة عامة يطيعون ذلك الدافع ، وانهم اناس لا مجدون ، وانما ان مصيرهم هو مصير لا مجد قد يفتن ويسحر قلبا واضحاً . ومن الضروري فهم هذا لكي نفهم ما يلي ، بدون ان نخطيء في شيء .

ان منطقة الممثل هي منطقة الحدوث الخاطف ومن المعروف انشهرته هي أقصر أنواع الشهرة . هذا هو على الأقل ما يقال في الحديث . ولكن كل انواع الشهرة قصيرة العمر . ومن وجهة نظر سيريوس ، ستكون جميع مؤلفات غوته منسية خلال عشرة آلاف سنة ، وسينسى اسمه ايضاً .

ولعل حفنة من رجال الاثار سيبحثون عن الادلة على وجود فترتنا . وقد كانت تلك الفكرة دائماً تحتوي على درس . اذ اننا اذا تأملنا فيها تأملاً جاداً ، نجدها تهبط بشاغلنا الى مستوى النبـــل العميق الذي يتجلى في اللاإكتراث . وهي ، فوق أي شيء آخر ، توجه اهتماماتنا نحو ما هو أكيد – أي نحو المباشر . ونجـــد بين كل انواع الشهرة ان اقلها خداعاً هي الشهرة التي تعاش .

ولهذا فان الممثل اختار الشهرة المضاعفة ، الشهرة المقدسة ، المختبرة . وهو يستنتج من كون كل الامور ستموت يومـــاً ما نتيجة هي افضل النتائج . والممثل ينجح او لا ينجح . ونجد ان للكاتب شيئاً من الامل حتى اذا لم ينل الاعجاب ، فهو يفترض ان مؤلفاته ستشهد على ما كان عليه هو نفسه . أما الممثل فهو ، على افضله ، يترك لنا صورة فوتوغرافية ولا شيء عما كان عليه هو نفسه ، حركاته ، وسكناته ، لهاثه او احتدامه بالحب ، يمكن أن يصل الينا . وبالنسبة اليه ، الا يعرفه أحد يعني انـــه لا يمثل ، وألا يمثل يعني الموت مائة مرة مع كل المخلوقات التي كان يمكن ان يأتي بها الى الحياة او يعيدها الى الحياة .

* * *

فلماذا يدهشنا ان نرى شهرة خاطفة تبنى على أشد المخلوقات قصراً في عمرها ؟ لدى الممثل ثلاث ساعات فقط ليكون فيها أياكو أو السيست أو بيـــدرو أو غلوستر . وهو في تلك الفترة القصيرة من الزمن يجعلهم

يأتون الى الحياة ويموتون على خمسين باردة مربعة من الالواح . فلم يسبق ان صورت اللاجدوى بمثل هذه القوة وهذا التفصيل . فأي ايجـاز موح اكثر من هذا يمكننا ان نتصور ؟ أفضل من هذه الحياة العجيبة ، تلك المصائر الاستثنائية النهائية التي تتكشف خلال بضع ساعات ضمن النطاق المسرحي ؟ ان سيجيسموندو لا يعني شيئاً خارج المسرح ، وبعد ساعتين ، يراه المرء وهو يتمشى في المدينة ، وبعد ذلك فلربما كانت الحياة حلمـاً . ولكن يأتي آخر بعد سيجيسموندو ، ويحل البطل الذي يعاني من الشك محل الرجل المزمجر طلباً للانتقام . وهكذا ، بالانتقال الخاطف عبر القرون والاذهان ، وبتقليد الانسان كما يمكن ان يكون وكما هو ، يكون للممثل اشتراك اكثر مع ذلك الفرد اللاجدي ، مع المسافر . فهو مثـــله يستنفد شيئاً ، وينتقل دائماً . انه المسافر في الزمن ، وهو على افضله المسافر الذي تتعقبه الارواح . واذا اتيح لاخلاقية العدد ان تجد لها برهاناً على الاطلاق فان ذلك يكون على ذلك المسرح العجيب . ومن الصعب بيان الدرجـة التي يستفيد بها الممثل من الشخصيات ، ولكن هذا ليس الامر المهم . انه امر يتوقف على مدى معرفته للدرجة التي يجد بها شبهاً بينه وبـين تلك الاعمار التي لا يمكن تعويضها . وغالباً ما يحدث انه يحملها معه ، وانها تفيض الى ابعد من الزمان والمكان اللذين ولدت فيهما . انها ترافق الممثل الذي لا يستطيع ان يفصل نفسه بسرعة من الاشياء التي كانها . ويحدث له في بعض الاحيان انه حين يمد يده ليتناول قدحه ، يستمر في اداء الحركات التي مد بها هاملت يده الى القدح ليرفعه الى شفتيه . كلا ، ان المسافة التي تفصله عن المخلوقات التي ترفض الحياة ليست كبيرة . بل انه ليعبر جداً ، في كل يوم ، عن تلك الحقيقة الموحية القائـلة بأنه ليس هنالك حد فاصل بين ما يريد الانسان ان يكونه وبين ما هو عليه .

وهو باهتمامه الدائم بالتمثيل الأفضل ، يوضح الى اي مـدى يخلق الظهور الكينونة . لأن ذلك هو فنه - ان يتظـــاهر بصورة مطلقة ، وان يبرز نفسه بالعمق الممكن في اشكال الحياة التي هي ليست ملكه . وفي نهاية مجهوده هذا تتضح مهنته : ان يكيف نفسه بكل مشاعره ليكون لا شيئاً ، او ليكون متعدداً . وكلمـا ازداد ضيق الحدود المخصصة له لخلق شخصيته ازدادت اهمية موهبته . سيموت خلال ثلاث ساعات تحت القناع الذي اتخذه لنفسه اليوم . وخلال تلك الساعات الثلاث عليه ان يجرب ويعبر عن حياة استثنائية كاملة . ويسمى هذا فقدان الذات لايجاد ذات اخرى . وهو في تلك الساعات الثلاث يسافر عـــبر ذلك المدى الكامل الذي يستغرق الانسان الجالس بين المتفرجين حياة كاملة ليقطعه .

* * *

والممثل بكونه مقلداً لما هو قصير العمر ، يدرب نفسه تدريباً كاملاً على المظاهر فقط . والتقليـد المسرحي يقول بأن القلب يعبر عن نفسه فقط عـبر الحركات ، وبالجسد - او عبر الصوت ، الذي هو من الروح بقدر كونه من الجسد . وتصر قاعدة ذلك الفن على ان كل شيء يجب ان يضخم ويترجم الى الجسد . فاذا كان من الضروري ان يحب المرء على المسرح كما يحب النـــاس حقاً ، وان يستخدم صوت القلب الذي لا يمكن تعويضـه ، وان ينظر كما يتأمل الناس في الحيـــاة ، فان كلامنا سيكون بالرموز . ولكن الصمت يجب ان يجعل نفسه مسموعاً هنـا . والحب يتحدث بصوت أشد ، وحتى اللاحركة والجمود يصبحـان رائعي

البروز . ويكون الجسم ملكاً . ولا يستطيع كل واحد ان يكون « مسرحياً » ، وهذه الكلمة المحملة بلؤم غير عادل تشتمل على جمالية كاملة واخلاقية كاملة . يضيع نصف عمر الانسان في ما يريد ان يعبر عنه ، وفي النكوص ، والصمت . والفنان هنا هو المتطفل . فالممثل يقضي على السحر الذي كان يقيد تلك الروح لتستطيع العواطف اخيراً ان تنطلق على مسرحها . انها تتحدث في كل حركة ، وهي تعيش فقط عبر الصيحات والنداءات . وهكذا يخلق الممثل شخوصه ليعرضها . انه يخططها ، او ينحتها ، ويتلبس بلبوس شكلها المتصور ، ويصب دمه في اشباحها . انني أتحدث عن الدراما العظيمة بالطبع ، النوع الذي يهب الممثل الفرصة ليحقق مصيره الجسدي تماماً . خذ شكسبير مثلاً . ففي تلك الدراما الدافعة نجد العواطف الجسدية تقود الرقص فتوضح كل شيء . وبدونها ينهار كل شيء ، ولن يتاح للملك لير ان يفي بموعده مع الجنون بدون الاشارة الوحشية التي تنفي كورديليا وتعدم ايدكار . فتكشف تلك المأساة شيئاً فشيئاً يبدأ منذ ذلك الحين بالوقوع تحت سيطرة الجنون . ويتم التخلي عن الأرواح للشياطين واحتفالها . وليس هنالك أقل من اربعة مجانين : واحد بسبب المهنة ، والثاني بالنية ، ويأتي بعد ذلك اثنان بسبب العذاب — اربعة اجسام مضطربة ، اربعة مظاهر لا يمكن النطق بها ، لحالة واحدة .

بل ان ميزان الجسم البشري نفسه غير مناسب . فالقناع والحذاء العالي والمكياج الذي يقلص الوجه ويركزه في عناصره الاساسية ، والملابس التي تبالغ او تبسط — ذلك الكون يضحي بكل شيء من اجل المظهر ، وهو معد للعين فقط — وبواسطة معجزة لا مجدية ، فان الجسد

نفسه يأتي بالمعرفة ايضاً . فلست أفهم اياكو ما لم ألعب دوره . فليس يكفيني ان اسمعه ، لأنني أفهمه فقط حين أراه . والمثل من الشخصية اللامجدية ، بالتالي ، الرتابة ، ذلك الظل المتفرد الصافع الذي هو غريب ، ومألوف ، معاً ، والذي يحمله من بطل الى آخر . وهنا ايضاً يساهم العمل الدراماتيكي العظيم في وحدة النغمة هذه[1] . وهنا ايضاً يناقض الممثل نفسه : هو نفسه ، ومع ذلك فهو هذا التنوع وهذا التعدد من الارواح المجتمعة في جسد واحد . ومع ذلك فانه التناقض اللامجدي ذاته ، ذلك الفرد الذي يريد ان يحقق كل شيء ويعيش كل شيء ، تلك المحاولة التي لا نفع فيها ، وذلك الاستمرار المصر الذي لا نتيجة له . ومع ذلك فما يناقض نفسه يتحد فيه . انه في النقطة التي يحادد فيها الجسد الذهن حيث يتجه الذهن المتعب من اندحاراته الى أشد حلفائه اخلاصاً له . ويقول هاملت : « مباركون هم أولئك الذي يمتزج دمهم ورأيهم بحيث لا يكونون بوقاً يعزف عليه القدر باصابعه ما يريد . »

* * *

(١) أفكر الآن بوليير وبطله « السيست » . فكل شيء بسيط ، وواضح ، وخشن . فالسيست مقابل فيلينت ، وسيليمن مقابل اليانث ، والموضوع بأكمله في نتيجة لامجدية خاصة بطبيعة موجهة نحو تطرفها ، والشعر نفسه ، « الشعر الرديء » الذي يندر ان نجده مشدداً ، تاماً كرتابة طبيعة الشخصية .

ترى كيف لم تُحَرّم الكنيسة مثل هذه الامور التي يقوم بها الممثل ؟ لقد حرّمت في ذلك الفن تضاعف الأرواح المهرطق ، والدعارة العاطفية وافتراضات الذهن الذي يعترض على عيش حياة واحدة ويندفع نحو كل اشكال الافراط . وحرمت ايضاً تفضيل الحاضر وانتصار بروتيوس ، وهذان أمران ينفيان كل ما تبشر به . فالابدية ليست لعبة . والذهن الذي يبلغ به الحمق ان يقبل الكوميديا بدلاً من الابدية يكون قد فقد خلاصه . وليس هنالك حل وسط بين « كل مكان » وبين « الى الابد » . ولهذا فان مثل هذا الادعاء المحمل بكل ذلك اللؤم يمكن ان يثير صراعاً روحياً هائلاً . لقد قال نيتشه : « المهم ليس الحياة الابدية ، وانما الغبطة الحية الابدية . » والحقيقة ان كل أشكال الدراما تدور على هذا الاختيار .

كانت ادريين ليكوفرير مستعدة وهي على فراش الموت للاعتراف وتقبل الدعاء ، ولكنها رفضت ان تنبذ مهنتها . وهكذا فقد خسرت فائدة الاعتراف . ألم يكن هذا ، في نتيجة ، اختياراً لعاطفتها الشديدة ، بدلاً من اختيارها لله ؟ ولقد أعطت تلك المرأة وهي تتعذب على فراش الموت ، دامعة العينين ، برفضها ان تنبذ ما سمته فنها ، الدليل على عظمة لم تحققها أبداً خلف الاضواء . كان هذا أبدع أدوارها وأشدها صعوبة . فالاختيار بين السماء والامانة المضحكة ، وتفضيل الذات على الابدية أو فقدان الذات في الله يمثل المأساة العريقة التي يجب على كل واحد أن يلعب دوره فيها .

كان ممثلو الفترة يعرفون انهم كانوا مستبعدين من شفاعة الكنيسة .

فقد كان دخول تلك المهنة يشبه اختيار الجحيم . وقد اكتشفت الكنيسة فيهم أسوأ أعدائها . ويحتج بعض الرجال قائلين : « ماذا ؟ حرمان موليير من الطقوس الاخيرة ؟ » ولكن ذلك كان عدلاً ، خاصة بالنسبة لرجل مات على المسرح وانتهى تحت أصباغ الممثل من حياة كانت مكرسة كلها للتشتت . وفي حالته يمكننا ان نستخدم نبوغه مبررا . ولكن النبوغ لا يبرر شيئاً ، فقط لانه يرفض ان يفعل ذلك .

كان الممثل يعرف في ذلك الحين أي عقاب ينتظره . ولكن أي مغزى هنالك يمكن ان يكون لمثل تلك التهديدات الغامضة أمام مغزى العقاب النهائي الذي تدخره له الحياة ذاتها ؟ كان ذلك هو العقاب الذي شعر به مقدما وتقبله كلياً . وبالنسبة للممثل ، كما هو الأمر بالنسبة للانسان اللامجدي ، لا يمكن تعويض الخسارة الكامنة في الموت قبل الاوان . لا شيء يمكن ان يعوض عن مجموع الوجوه والعصور التي كان يمكن أن يراها لولا ذلك الموت . ولكن المرء يجب ان يموت مهما كلف الأمر . لان الممثل هو حقاً في كل مكان ، بيد ان الزمن يدفعه الى الامام ايضاً ويترك فيه آثاره .

لا يتطلب الامر الا شيئاً من التخيل لنعرف ماذا يعنيه مصير الممثل. فهو يصنع شخصياته ويعددها في الزمن . وهو يتعلم ان يتحكم فيها في الزمن ايضاً . وكلما زاد عدد الاعمار المختلفة التي يكون قد عاشها ، زاد بعداً عنها . ويأتي وقت يجب عليه فيه أن يموت بالنسبة للمسرح وبالنسبة للعالم . ويواجه ما كان قد عاشه . وهو يرى بوضوح ، ويشعر

بالنوعية المقلقة التي لا يمكن تغييرها ، والتي تتصف بها تلك المغـامرة . انه يعرف ، وهو يستطيع أن يموت الآن . وهنـــالك بيوت للممثلين المسنين .

الغلبـــة

يقول الفاتح : « كلا ، لا تفترض انـه بسبب حبي للفعالية يكون عليّ أن أنسى كيف أفكر . بالعكس ، استطيع تماماً أن أعرّف مـا أؤمن به ، لانني أفكر به بثبات وأراه بوضوح ويقين . احذر اولئك الذين يقولون : — انني اعرف ذلك كل المعرفة ، الى درجـة انني لا أستطيع أن أعبر عنه . — لانهم اذا لم يكونوا قـادرين على ذلك فهذا يرجع الى انهم لا يعرفونه ، أو لأنهم وقفوا خارج السطح بسبب من كسلهم » .

« ليس لدي عدد من الاراء . ففي نهاية الحياة يرى الرجل انه قـد انفق سنوات ليتأكد من حقيقة واحدة . ولكن الحقيقة الواحدة ، اذا كانت واضحة ، تكفي لتوجه وجوداً . أما بالنسبة لي ، فلدي بالفعـل ما أريد أن أقوله عن الفرد . يجب على المرء ان يتحدث عنـه بالحق ، واذا احتاج الامر ، فبالاحتقار المناسب .

« ان الانسان هو انسان خلال الأشيـاء التي يحتفظ بها لنفسه اكثر من كونه انساناً خلال الاشياء التي يقولها . وهنالك اشياء كثيرة سأحتفظ بها لنفسي . ولكنني اؤمن بثبات بأن كل اولئك الذين اصدروا رأيهم

عن الفرد قد فعلوا ذلك بناء على تجربة أقل من التجربة التي نستند عليها نحن في رأينا . لقد لاحظ الذكاء ، ربما الذكاء المثير ، وتنبأ بما هو ضروري للملاحظة . ولكن الفترة ، وخرائبها ، ودمها تدحرنا بالحقائق . لقد كان ممكناً للشعوب القديمة ، حتى الشعوب الحديثة الى حد عصرنا ، عصر الآلة ، ان توازن بين فضائل المجتمع والفرد ، وان تحاول ان تعرف أيها يخدم الآخر . ولنبدأ بالقول بان ذلك ممكناً بفضل ذلك الضلال المتحكم في قلب الانسان ، القائل بان الكائنات البشرية مخلوقة لتخدِم او تُخدَم . ثم ان ذلك كان ممكناً لأنه لم يكن المجتمع ولا الفرد قد تكشفا عن قابليتهما بعد » .

« لقد رأيت أذهاناً لامعة تعبر عن الدهشة من اللوحات العظيمة للرسامين الهولنديين الذين ولدوا في ذروة الحروب التي حدثت في الفلاندر ، وتستغرب من الصلوات التي كان يقوم بها المتصوفون السيليزيون الذين ربوا خلال حرب الثلاثين المرعبة . القيم الابدية تعيش بعد الاضطرابات الدنيوية امام اعينهم المندهشة . ولكن كان هنالك تقدم منذ ذلك الحين. فرسامو اليوم محرومون من ذلك الوقار . وحتى اذا كان لهم اساساً القلب الذي يحتاج اليه الخالق – اعني القلب المغلق – فذلك امر لا ينفع ، لأن الجميع ، حتى القديس ، قد شملته الحركة . ولعل هذا هو ما شعرت به بعمق . ففي كل شكل تضيع معالمه في الخنادق ، وفي كل مظهر او تشبيه او صلاة مما يسحقه الفولاذ ، تخسر الأبدية جولة . ولما كنت ادرك انني لا استطيع ان اقف بعيداً عن زمني ، فقد قررت ان اكون جزءاً لا يتجزأ منه . وهذا هو السبب في انني اقدر الفرد فقط لأنني اراه مضحكاً مهاناً . ولما كنت اعرف انه ليست هنالك قضايا منتصرة ،

فانني اميل الى القضايا الخاسرة . انها تحتاج الى روح لم تصبها العدوى ، تقف نحو اندحارها مثل موقفها نحو انتصاراتها المؤقتة . فكل من يشعر بانه مرتبط مع مصير العالم يرى في تصادم الحضارات امراً معذباً . وقد جعلت ذلك العذاب عذابي في الوقت نفسه الذي اردت فيه ان اشترك فيه . وفي اختياري بين التاريخ والابدية ، اخترت التاريخ لأنني اميل الى ما هو يقين . فانا ، على الاقل ، موقن منه ، وكيف استطيع ان انكر هذه القوة التي تسحقني ؟ »

« يحدث دائماً ان يجد المرء نفسه مضطراً الى الاختيار بين التأمل والفعالية . ويسمى هذا « الصيرورة رجلاً » ومثل هذه الامور مرعبة ، ولكن ليس امام القلب الفخور اي حل وسط . هنالك الله والزمن ، ذلك الصليب او هذا السيف . لا شيء هنالك حقيقي غير تلك المشاكل والمتاعب . وعلى المرء ان يعيش مع الزمن ويموت معه ، او يجب عليه ان يتحاشاه ويتجاهله من أجل حياة اعظم . وانني اعرف ان المرء يستطيع ان يجد تسوية فيعيش مع العالم بينما يؤمن بالابديه. وهذا يسمى القبول . ولكنني اكره هذه التسمية وأريد كل شيء ، او لا اريد شيئاً . فاذا اخترت الفعالية فلا تظن ان التأمل بالنسبة لي هو كالبلد الاجنبي الذي لا اعرف عنه شيئاً . ولكن ذلك لا يمكن ان يمنحني كل شيء ، ولما كنت محروماً من الابدية ، فانني اريد ان اتحالف مع الزمن . ولست اريد ان أضيف الى حسابي الحنين الغامض او المرارة ، وانا ، فقط ، اريد ان ارى بوضوح . اقول لك انك غداً ستندفع متحركاً . وهذا هو بالنسبة لك ، ولي ، تحرير . فالفرد لا يستطيع ان يفعل اي شيء ، ومع ذلك فهو يستطيع ان يفعل كل شيء . وفي تلك الحالة الرائعة

اللامرتبطة يمكنك ان تفهم لماذا اقدسه واسحقه في الوقت نفسه . العالم هو الذي يسحقة سحقاً ، وانا الذي أحرره . وانا الذي اعطيه حقوقه ».

* * *

« والفاتحون يعرفون ان الفعالية هي بحد ذاتها غير نافعة . هنالك فعل مفيد واحد فقط ، وهو اعادة خلق الانسان والارض . ولن أعيد خلق البشر . ولكن المرء يجب ان يفعل (وكأنه) . لأن طريق النضال يقود الى الجسد . وحتى اذا كان مهاناً ، هذا الجسد ، فانه يقيني الوحيد واستطيع ان أعيش عليه فقط . والمخلوق هو موطني . ولهذا السبب اخترت هذا المجهود اللاجدي ، الذي لا نتيجة له . ولهذا السبب أقف بجانب الصراع ، فالفترة تهب نفسها لهذا ، كما قلت . كانت عظمة الفاتح حتى الآن جغرافية ، وكانت تقاس بمدى الاقطار المفتوحة . وهنالك سبب جعل تلك الكلمة تتغير في معناها ولم تعد تعني الجنرال المنتصر . لقد غيرت العظمة معسكرها . انها تكمن في الاحتجاج والتضحية في الزقاق المسدود . وهنا ايضاً لا يكون الامر تفضيلاً للاندحار ، لأن النصر مرغوب ، ولكن هنالك نصراً واحداً فقط ، وهو أبدي . ذلك هو النصر الذي لن يكون لي قط . وهنا أتعثر وأتشبث . فالثورة دائمة التحقق ضد الآلهة ، مبتدئة بثورة بروميثوس ، اول الفاتحين الحديثين . انها مطاليب الانسان ضد مصيره ، اما مطاليب الفقراء فليست غير معاذير . بيد انني استطيع ان اقبض على تلك الروح بفعاليتها التاريخية فقط ، وذلك هو مجال اتصالي بها . ولكن لا تفترض

اني أجد لذة في ذلك : فبعكس التناقض الاساسي ، احافظ على تناقضي البشري . انني اثبت وضوحي وسط ما ينفيه . واقدس الانسان امام ما يسحقه ، ثم تأتي حريتي وثورتي وعاطفتي معاً في ذلك التوتر ، ذلك الوضوح ، وذلك التكرار الواسع » .

« أجل ، الانسان هو نهاية نفسه . وهو نهايته الوحيدة . فاذا هدف الى ان يكون شيئاً ، فان ذلك يكون في هذه الحياة . وانا اعرف ذلك اكثر مما ينبغي . فالفاتحون يتحدثون احياناً عن الدحر والغلبة ، ولكنهم يعنون دائماً « التغلب على نفوسهم » . وانت تدرك جيداً ما يعنيه ذلك . فكل انسان يشعر بانه معادل لإله في لحظات معينة . هذه هي ، على الاقل ، الطريقة التي يتم التعبير بها عن ذلك . ولكن ذلك يتأتى من حقيقة انه شعر شعوراً خاطفاً بعظمة الذهن البشري . والفاتحون هم اولئك الناس ، بين البشر ، الذين يدركون قوتهم بصورة كافية لتجعلهم يوقنون من العيش دائماً فوق تلك الذرى ، مدركين تلك العظمة كل الادراك . انها مسألة حسابية ، اكثر ، او أقل . والفاتحون قادرون على الاكثر ، ولكنهم لا يقدرون على اكثر مما يقدر عليه الانسان نفسه حين يريد . ولهذا فهم لا يغادرون البوتقة البشرية ، منغمسين في روح الثورات الصخابة » .

« وهنالك يجدون المخلوق مقطع الأوصال ، ولكنهم يواجهون هنالك ايضاً القيم الوحيدة التي يميلون اليها ويعجبون بها ، الانسان وصمته . وهذا هو ما يؤلف خرابهم ويُسْرهم معاً . وهنالك ترف واحد لهم –

رف العلاقات البشرية . فكيف لا يستطيع المرء ان يدرك ان في هذا الكون الضعيف كل ما هو بشري ، وبشري فقط ، يتخذ لنفسه معنى اكثر اشراقاً ؟ الوجوه المتوترة ، والاخـاء المهدّد ، مثل تلك الصداقة القوية البريئة بين البشر – تلك هي الثروات الحقيقية– لأنهـا عابرة . وفي وسطها يكون الذهن على أشد ادراكه لقواه وحدوده . اي لمدى تأثيره . لقد تحدث البعض عن النبوغ . ولكن النبوغ امر يسهل قوله ، انني افضـــل الذكاء ، اذ يمكن القول بانه سيكون رائعاً حينئذ . انه يضيء هذه الصحراء ويتحكم فيها . انه يعرف التزاماته ويوضحهـــا . وسيموت مع الجسد ، ولكن معرفته لهذا تؤلف حريته » .

* * *

نحن لا نجهل ان كل الكنائس هي ضدنا . والقلب المعد هكذا يتجنب الأبدية ، والكنـائس كلها ، مقدسة او سياسية ، تدعي بالأبدية ، أما السعادة والشجاعة ، والتعويض عن الآثام او العدالة ، فهي اهداف ثانوية بالنسبة اليها . انها تأتي بعقيدة ، ويجب على المرء ان يساهم فيها باشراك . ولكنني لا أهتم بالافكار او بالابدية . والحقـائق التي تدخل ضمن نطاقي يمكن لمسها باليد . ولا استطيع ان أنفصل عنها . ولهذا السبب فانت لا تستطيع ان تبني اي شيء عليّ ، اذ لا شيء يدوم من الفاتح ، حتى ولا عقائده » .

وفي نهاية كل ذلك ، وبالرغم من الاشياء كلها ، يكمن الموت . ونحن

نعرف ايضاً انه ينهي كل شيء . ولهذا السبب ، فان كل تلك المقابر المنتشرة في اوروبا ، والتي تقلق بعضنا ، كريهة . فالناس يسبغون الجمال على ما يحبونه فقط ، والموت يصدنا ويستنفد صبرنا ، ويجب دحره هو ايضاً . كان كارار الاخير ، السجين في بادوا ، التي أخلاها الطاعون وحاصرها البندقيون ، يركض صارخاً في قاعات قصره المهجور ، كان يدعو الشيطان ويطلب منه الموت . وكانت هذه طريقة من طرق دحره . وهي ايضاً علامة على الشجاعة التي يمتاز بها الغرب لأنه أسبغ القبح على الأماكن التي يظن الموت انه يجد فيها الاكرام . وفي عالم الثائر ، يقدس الموت الظلم ، وهذا هو الاسفاف الأسمى » .

« واختار آخرون ، بدون ان يتخلوا عن ايها ، الابدية ، وشجبوا وهم هذا العالم . ومقابرهم تبتسم وسط العديد من الأزهار والطيور . وهذا يناسب الفاتح ويهبه صورة واضحة لما كان قد رفضه . لقد اختار ، بالعكس حاجز الحديد الأسود ، أو الحقل الذي يعمل فيه صانع الخزف . وافضل الناس ، بين ناس الله ، يرعبهم بين حين وآخر ، رعباً ممزوجاً بالتأمل والعطف ، ان يروا هذه الأذهان التي تستطيع ان تعيش وهي تتصور لنفسها مثل هذا الموت . بيد ان هذه الاذهان تستمد قوتها ومبرراتها من ذلك نفسه . ان مصيرنا يقف أمامنا ونحن نستثيره . وليس هذا بسبب فخرنا وكبريائنا بقدر كونه بسبب ادراكنا لوضعيتنا التي لا نتيجة ترجى منها . ونحن ايضاً نشعر في بعض الاحيان بالشفقة على انفسنا . وهذا هو التعاطف الوحيد الذي يلوح لك مقبولاً بالنسبة الينا : الشعور الذي قد لا تفهمه ، ولا يلوح لك ذلك رجولياً . ومع ذلك فان اشجع

الناس بيننا هم اولئك الذين يشعرون به . ولكننا نسمي الواضحين رجالاً ولا نريد قوة منفصلة عن الوضوح . »

* * *

دعني اكرر ان هذه التصورات لا تفترض اية شرائع اخلاقية ، كما انها لا تشتمل على أي حكم . انها صور تخطيطية فقط . فالعاشق ، والممثل ، والمغامر يلعبون دور اللاجدوى . ولكن يستطيع ان يفعل ذلك بنفس القوة ، إذا شاء ، العفيف ، والموظف ، او رئيس الجمهورية . فيكفيه ان يعرف ، وألا يضع قناعاً على اي شيء . يعثر المرء في المتاحف الايطالية احياناً على لوحات عليها رسوم كان القس يستخدمها ليغطي عيني المحكوم عليه بالاعدام فلا يرى المشنقة . والقفزة بكل اشكالها ، الاندفاع لمقابلة المقدس او الابدية ، والاستسلام لاوهام الحياة اليومية ، او الفكرة — كل تلك اللوحات تخفي اللاجدوى — ولكن هنالك موظفين بلا لوحات ، وهم اولئك الذين أريد ان أتحدث عنهم .

لقد اخترت اشدهم تطرفاً . وفي هذا المستوى تهبهم اللاجدوى قوة ملكية . صحيح ان هؤلاء الامراء هم بدون مملكة ، ولكنهم يتميزون عن الآخرين بهذا : انهم يعرفون ان جلال الملوك وهمي . وهم يعرفون ان هذا هو كل ما يؤلف نبلهم ، وغير مفيد ان نتحدث عن علاقتهم بسوء الحظ الغامض ، أو رماد الخيبة . ففقدان الامل ليس يأساً ، ولهب الأرض يساوي عطور السماء ، ولا يستطيع أحد ، حتى ولا انا ، ان يحكم عليهم هنا . انهم

لا يكافحون ليكونوا افضل ، وانما يحاولون ان يكونوا متماسكين ، فاذا كان ممكناً ان يطلق مصطلح « الرجل الحكيم » على من يعيش على ما يملكه بدون ان يؤمل شيئاً مما لا يملكه ، فهم اذن حكماء . وهنالك واحد منهم ، وهو فاتح ، ولكن في دنيا الذهن ، ودون جوان ، ولكن في المعرفة ، وممثل ، ولكن في دنيا الذكاء ، يعرف هذا اكثر من اي شخص آخر : « انت قط لا تستحق امتيازاً في الأرض او السماء لابلاغك درجة الكمال خروفك الطيب الصغير العزيز ، وانت مع ذلك تستمر في كونك ، على افضالك ، خروفاً صغيراً عزيزاً مضحكاً ، بقرون ، ولا شيء غير ذلك – مفترضين ايضاً انك لا تنفجر بالغرور ولا تثير فضيحة باتخاذك موقف الذي يصدر حكمه . »

وعلى اي حال فقد كان ضرورياً ان نعيد للتعليل اللامجدي امثلة اقرب إلى القلوب . ويستطيع الخيال ان يضيف امثلة اخرى ، غير منفصلة عن الزمن والمنفى ، من اولئك الذين يعرفون ايضاً كيف يعيشون متفقين مع كون ليس له مستقبل وليس فيه ضعف . وهذا العالم اللامجدي ، الذي لا اله فيه ، مأهول بمن يفكرون بوضوح ، ولم يعودوا يأملون . ولم اتحدث بعد عن أشد الشخصيات لا جدوى ، اي الخالق .





الخلق الأمجدي

كل تلك الاعمار الحياتية التي تعيش في جو اللاجدوى النادر لا يمكن ان تستمر بدون ان يصب فكر عميق ودائم قوته فيها . وهنا بالذات يمكن ان يكون ذلك شعوراً غريباً فقط بالامانة . وقد لاحظ المدركون وهم ينجزون مسؤولياتهم وسط أسخف الحروب دون ان ينظروا الى انفسهم باعتبارها متناقضة . كان هذا لانه كان من الضروري عدم تجنب اي شيء . هنالك اذن شرف ميتافيزيكي في احتمال لا جدوى العالم . والغلبة ، والتمثيل ، وتعدد الغراميات ، والثورة اللاجدية ، هي المساهمات التي يقدمها الانسان من اجل كرامته في حملة يكون فيها مدحوراً منذ البداية .

ذلك هو من أمور الامانة تجاه قواعد المعركة . وذلك الفكر قديكون كافياً للابقاء على الذهن ، وقد دعم ، وما يزال يدعم ، حضارات كاملة . فلا يمكن نفي الحرب ، ويجب على المرء ان يعيشها أو يموت بسببها ، وكذلك هو الأمر مع اللاجدوى . انه امر متعلق بتنفسها ، برؤية عظاتها ،

واستعادة الاجساد . وفي هذا الصدد نجد ان الغبطة اللامجدية الممتازة هي الخلق . قال نيتشه : « الفن ، ولا شيء غير الفن ، لدينـــا الفن لكي لا نموت بسبب الحقيقة . »

ومن المؤكد في التجربة التي احـــاول ان اصفها ، واركز على بعض انماطها ، ان عذاباً جديداً ينبثق كلما مات عذاب آخر . والبحث الطفولي عن النسيان وحب الاشباع هما الآن خاليان من اي صدى . ولكن التوتر الدائم الذي يبقي الانسان وجهاً لوجه مع العالم ، والهذيان المنظم الذي يحفزه على ان يكون متسلماً لكل شيء ، يتركان له حمى أخرى . ولهذا فان العمل الفني في هذا العالم هو الفرصة الوحيدة للاحتفـــاظ بادراك الانسان وتثبيت مغامراته . والخلق هو العيش المضاعف . وان بحث بروست المتلمس في الظلام ، المتلهف ، واهتمامه الدقيق بجمع الزهور وورق الزينة ودواعي القلق ، كل تلك الامور لا يمكن ان تعني شيئاً آخر . وفي الوقت نفسه فانها لا تعني اكثر مما يعنيه الخلق المستمر اللامفهوم الذي يغرق فيه الممثل والفاتح وكل البشر اللامجـدين في كل يوم من ايام حياتهم . فالكل يجربون ايديهم في تقليد وتكرار واعادة خلق الواقع الذي هو واقعهم . ونحن ننتهي دائماً بان يكون لنا مظهر حقائقنـا . وكل الوجود بالنسبة للانسان الذي يدير ظهره الى الأبدية هو فقط تقليد هائل تحت قنـاع اللاجدوى . والخلق هو التقليد المظيم .

ولنبدأ بالقول بأن هؤلاء الناس يعرفون ، ثم ينحصر كل مجهودهم في اختبار وتوسيع واغناء الجزيرة العابرة التي هبطوا فيهـا . ولكن عليهم

ان يعرفوا اولاً . لأن الاكتشاف اللاجدي يحدث مع توقف تكون فيه عواطف المستقبل معدة ومبررة . وحتى النـاس الذين ليس لديهم انجيل يملكون جبل الزيتون . ويجب ألا ينام المرء على جبلهم ايضاً ، فالامر بالنسبة للانسان اللاجدي ليس تفسيراً ولا حلا ، وانما هو تجربة ووصف . وكل شيء يبدء باللااكتراث الواضح .

الوصف – هذا هو آخر مطامح الفكر اللاجدي . والعلم ايضـاً ، بعد ان وصل الى نهاية تناقضاته ، كف عن التـأمل ، ولم يعد يفكر في ، او يضع الخطوط العـامة ، لمنظر الظواهر البكر دائما . وهكذا يتعلم القلب ان العاطفة التي تغبطنا حين نرى مظاهر العـالم لا تأتينا من عمق العالم ، وانما من تعدد تلك المظاهر واختلافها . والتفسير لا ينفع ، ولكن الاحساس يبقى ، وتبقى معه ايضاً المفاتن الدائمة لكون لا ينفد تعدده . ومن الممكن في هذه النقطة فهم مكان العمل الفني .

انه يعني موت التجربة وتضاعفها معاً . انه نوع من التكرار الرتيب ، المحتدم ، للافكار التي عرفها العالم بالفعل : الجسد ، تصور لا ينفد عند قواعد التماثيل في المعبد ، والاشكال والألوان ، والعدد ، او الحزن . وبالنتيجـــة فانه ليس لااكتراثاً ان نواجه ثانية الافكار الرئيسية لهذا البحث في عالم الخـالق ، الرائع ، الطفولي . ومن الخطأ ان نرى فيه رمزاً وان نظن ان العمل الفني يمكن ان يعتبر اخيراً ملجأ للاجدوى . انه هو نفسه ظاهرة لاجدية ، ونحن هنا مهتمون بوصفه فقط . وهو لا يوفر خلاصاً من المرض العقلي ، وانما هو احد أعراض ذلك المرض الذي

يمكسه عبر فكر الانسان كله . ولكنه للمرة الاولى يجعل الذهن يخرج خارج نفسه ، ويضعه ضد الاذهان الاخرى ، لا لكي يتيه ، وانما ليريه بوضوح الممر المسدود الذي دخله الجميع . وفي زمن التعليل اللامجدي يتبع الخلق اللااكتراث والاكتشاف ، وهو يعين النقطة التي تنبثق منها العواطف اللامجدية والتي يتوقف فيها التعليل اللامجدي . وانا ابرر مكانه في هذا البحث بهذه الطريقة .

يكفينا ان نلقي ضوءاً على بعض الافكار المألوفة بالنسبة للخالق والمفكر لكي نجد في العمل الفني كل تناقضات الفكر التي تشتمل عليها اللاجدوى . والحق ان النتائج المتشابهة لا تثبت وجود العلاقة بين الاذهان بقدر المتناقضات الموجودة بين تلك الاذهان . وكذلك هو الامر مع الفكر والخلق . ولست أحتاج هنا الى ان أقول ان الدافع نفسه يحفز الانسان الى هذين الموقفين . وهنا يحدثان معاً في البداية ، ولكن ، بين كل الافكار التي تبدأ من اللاجدوى ، لم أجد الا القليل مما يبقى معها . وقد استطعت ان اقيس بصورة افضل ، خلال انحرافاتها ولا أمانتها ، الجانب الذي يخص اللاجدوى . ويجب علي ان اتساءل بنفس الطريقة : هل ان العمل الفني اللامجدي ممكن ؟

* * *

من المستحيل الاصرار كثيراً على الطبيعة المفروضة في التناقض السابق بين الفن والفلسفة . فاذا اصررت على ان تأخذه بمعنى محدود جداً ، فانه

زائد بالتأكيد . واذا عنيت فقط ان لكل من هذين النظامين جوه الخاص به ، فقد يكون هذا صحيحاً ، ولكنه يظل غامضاً . وكان البحث الوحيد المقبول يكمن في التناقض الذي يتم ابرازه بـــين الفيلسوف المحصور ضمن نظامه والفنان الموضوع امام عمله الفني . ولكن هــذا كان يخص شكلاً معيناً من اشكال الفن والفلسفة نعتبره ثانوياً هنا . فلم يتم التخلي عن فكرة كون العمل الفني منفصلاً عن خالقه فقط ، وإنما هي فكرة مزيفة ايضاً . وعلى النقيض من الفنان ، يشار الى ان الفيلسوف لم يخلق مطلقــاً عدة انظمة . ولكن هـــذا يكون صحيحاً فقط طالما ان الفنان لم يعبر قط عن اكثر من شيء واحد تحت مظاهر مختلفة . والكمال المباشر في الفن والحاجة الى تجدده – يصح هذا فقط عبر فكرة موضوعة سابقاً . لان العمل الفني هو ايضاً بناء ، والجميع يعرفون كم يمكن ان يتصف الخالقون العظام بالرتابة . والفنان كالمفكر ، للسبب ذاته ، يلتزم ويصبح هو نفسه في عمله . وهذا التنافذ بينهما يثير أشد المشاكل الجمالية أهمية . واكثر من هذا لا يكون هنالك بالنسبة لمن يقتنع بوحدة هدفية الذهن شيء اكثر سخفاً من هذه التمييزات المرتكزة على الطرق والموضوعات . فليست هنـــالك حدود بين الانظمة التي يقيمها الانسان نفسه للفهم والحب . انها تتشابك. ويثيرها القلق ذاته .

من الضروري ان نقول هذا كبداية . لانه اذا كان يراد من العمـــل الفني اللاجدي ان يكون ممكناً ، فيجب ان يدخل ضمنه الفكر بابسط اشكاله . وفي الوقت نفسه يجب الا يكون الفكر واضحاً الا في كونـه الذكاء المنظم . ويمكن تفسير التعارض على ضوء اللاجدوى . فالعمل الفني يولد من رفض الذكاء ان يعلل الملموس تعليلاً عقلياً . وهو يشير الى انتصار

الجسد . والفكر الواضح هو الذي يثيره ، بيـد ان ذلك الفكر ، بذلك العمل ذاته ، انما ينفي نفسه . ولن يستسلم للاغراء المتمثل في اضافة معنى اعمق الى ما يوصف ، معنى يعرف انه غير مشروع . والعمل الفني يجسد دراما الذكاء ، ولكنه يثبت هذا بصورة لا مباشرة فقط . والعمل اللاجدي يتطلب فناناً مدركاً لهذه التقييدات والحدود وفناً لا يعني فيه الملموس اكثر من نفسه . فلا يمكن ان يكون نهاية ، ومعنى ، وتعزية حياة . فالخلق أو عدم الخلق لا يبدلان شيئاً . والفنان اللاجدي لا يضع لعمله قيمة ، وهو يستطيع ان يشجبه بالفعل في بعض الأحيان . تكفيه الحبشة مثلاً في هذه الحالة ، كما هو الامر مع رامبو .

وفي الوقت نفسه ، يمكننا ان نرى قاعدة جمالية في هذا . فالعمل الفني الحقيقي هو دائماً على الميزان البشري . وهو بالضرورة ذلك الذي يقول « اقل » . وهنالك علاقة معينة بين التجربة الأرضية للفنان ، وبين العمل الذي تنعكس فيه تلك التجربة ، بين فلهلم ميستر ونضج غوته . وتكون تلك العلاقة رديئة حين يهدف العمل الى اعطاء التجربة كلهـا بين دفتي الادب التوضيحي . وتكون تلك العلاقة جيدة حين يكون العمل قطعة من التجربة فقط ، جانباً واحداً من الجوانب المتعددة في الجوهرة ، يتركز فيه التألق الداخلي بدون ان يكون محـدوداً . ففي الحالة الاولى هنالك افراط وادعـاء بالابدية . وفي الحالة الثانية هنـالك عمل مثمر بسبب تجربة كاملة متضمنة ، يشك في غناها . ومشكلة الفنان اللاجدي هي ان يحصل على هذه المعرفة الحية التي تفوق المعرفة المصنوعة . وفي النهاية ، فان الفنان العظيم في هذا الجو هو قبل اي شيء آخر كائن حي عظيم ، على ان نفهم ان العيش في هذه الحالة هو تجربة بقدر كونه

انعكاساً . وهكذا فان العمل يجسد دراما عقلية . والعمل اللاعجدي يوضح نبذ الفكر لكرامته واستسلامه لكونـه لا شيء اكثر من الذكاء الذي يصنع المظاهر ويغطي بالصور كل ما لا سبب له . ولو كان العالم واضحاً فان الفن لن يكون موجوداً .

ولست أتحدث هنـا عن فنون الشكل أو اللون التي يسود فيهـا الوصف فقط باعتـداله الرائع [1] . فالتعبير يبـدأ حيث ينتهي الفكر . وهؤلاء المراهقون الذين يحملقون بعيون فارغة في المعابد والمتاحف — تم التعبير عن فلسفتهم بالحركات . وذلك بالنسبة للانسان اللاعجـدي أشد تثقيفاً من كل المكتبـات . وذلك ينطبق على الموسيقى ايضاً تحت مظهر آخر . لأنه اذا كان الفن خالياً من العظات ، فلا بد انه موسيقى . انه يكون اقرب الى الرياضيـات اذا لم يكن قـد استعار شيئاً من عطائها السمح . ويلعب الذهن هـذه اللعبة مع نفسه طبقاً لقواعد موضوعـة خاضعة للقياس وتحدث اللعبة ضمن نطاق ترددنا الصوتي الخاص بنا والذي وراءه تتلاقى الترددات في كون لابشري . وليس هنـالك احساس أشد نقاء . هذه أمثلة سهلة جداً . والانسان اللاعجدي يعتبر هذه التوافقـات والاشكال توافقاته واشكاله .

ولكنني اود هنا ان أتحدث عن عمل يظل فيه اغراء التفسير اعظم

---

(١) من المثير ان نلاحظ ان اشد انواع الرسم ذهنية ، ذلك الذي يحاول ان يقلص الواقع الى عناصره الاساسية ، وليس في النهاية غير غبطة بصرية . فكلما احتفظ به من العالم هو لونـه . (ويتضح هذا بصورة خاصة عند ليجيه) .

الجميع ، ويقدم فيه الوهم نفسه اوتوماتيكياً ، ويكون فيه الاستنتاج حتمياً تقريباً . وأعني الخلق الروائي . وسوف ابحث امكانية احتفاظ اللاجدوى بنفسها في هذا المجال .

ان يفكر المرء هو قبل اي شيء آخر ان يخلق عالماً (او أن يحدد عالمه الخاص ، الأمر الذي لا يمثل اي اختلاف) . انه بدء من الاختلاف الأساسي الذي يفصل الانسان عن تجربته من اجل ايجاد اساس مشترك عام طبقاً للحنين الغامض الذي يشعر به المرء ، وكون مسوّر بالاسباب او مضاء بالتشابهات ، ولكنه ، على أي حال ، يعطي الفرصة للقضاء على الاختلاف الذي لا يمكن احتماله . والفيلسوف هو خالق ، حتى اذا كان هذا الفيلسوف كانط . فلديه شخوصه ، ورموزه ، وفعاليته الخفية . ولديه نهايات عقده . وبصورة عكسية ، فان اسبقية القصة على الشعر والمقالة تمثل فقط ، بالرغم من المظاهر ، اسباغاً اعظم للعقلية على الفن . دعنا لا نخطىء في هذا الصدد : انني أتحدث عن الاعظم . ان خصب وأهمية الشكل الفني يقاسان دائماً بالسخف الذي يضمه ذلك الشكل . وعدد الروايات الرديئة يجب ألا يجعلنا ننسى قيمة الأفضل . فهذه حقاً تحمل كونها معها . وللرواية منطقها ، وتعليلها العقلي ، وبداهاتها ، والأمور المسلم بها فيها . ولها ايضاً متطلبات وضوحها [1] .

---

(١) اذا كففت عن التفكير في ذلك فهذا يفسر اردأ الروايات . بل ان كل واحد يعتبر نفسه قادراً على التفكير ، وهو الى درجة ما ، سواء كان مخطئاً او مصيباً ، يفكر حقاً . وبالعكس ، فالقلائل فقط يمكن ان يتصوروا انفسهم شعراء او فنانين في الكلمات . ولكن منذ

والتمارض الكلاسيكي الذي كنت أتحدث عنه الآن لا يجد الا تبريراً أقل في هذه الحالة . كان باقياً في الوقت الذي كان ممكناً فيه فصل الفلسفة عن موجديها . واليوم ، حين كف الفكر عن الادعاء بالعمومي ، وحين اصبح افضل ما في تاريخه هو اقدامه على الندم والتراجع ، صرنا نعرف ان النظام الفلسفي ، حين يكون ذا قيمة ، لا يمكن ان ينفصل عن موجده . وعلم الاخلاق نفسه في احـــد مظاهره ليس الا اعترافاً شخصياً طويلاً مشبعاً بالتحليل العقلي . وعاد الفكر المجرد في النهاية الى الارتكاز على الجسد . وكذلك ، فان النشاطات الروائية الخاصة بالجسد والعواطف صارت تنظم بصورة اكثر قليلا ، طبقاً لمتطلبات رؤيا معينة للعـــالم . وكف الكاتب عن رواية « القصص » وصار يخلق كونه . والروائيون المتازون العظام هم الروائيون الفلاسفة – اي اضداد كتاب البحوث – فمثلاً ، بلزاك ، وساد ، وميلفيل ، وستندال ، ودوستويفسكي ، وبروست ، ومالرو ، وكافكا ، هذا اذا أردنا ان نذكر القلائل .

والحق ان تفضيلهم الكتـــابة بالتصورات بدلاً من البحوث المشبعة بالتحليل العقلي يوحي بفكر معين يشتركون فيه جميعا ، بعد ان اقتنعوا بلا فائدة اي مبدأ تفسيري ، وبعد ان وثقوا من الرسالة التثقيفية التي يضطلع بها المظهر المحسوس . وهم يعتبرون العمل الفني نهـاية وبداية .

اللحظة التي ينتصر فيها الفكر على الاسلوب يقتحم الرعاع دنيا القصة . وليس هذا شراً عظيماً كما يقال ، فالممتازون ينقادون الى الالحاح على انفسهم بمطـــالب كثيرة ، اما الذين يستسلمون فهم لا يستحقون البقاء .

انه حصاد فلسفة غير معبر عنها ، تفسيرها وتنفيذها . ولكنه يكتمل فقط خلال مضامين تلك الفلسفة . انه يبرر اخيراً العـــامل الثابت في الفكرة القديمة القائلة بان قليلاً من الفكر يبعد عن الحياة ، وكثيراً منه يعيد اليهـــا . ولما لم يكن الفكر قادراً على تنقية الواقع فانه يتوقف ليقلده . والرواية التي نبحثها هي الأداة لتلك المعرفة التي هي في وقت واحد معاً نسبية وغير قابلة للنفـــاد ، كالحب . وللخلق الروائي من الحب ذلك التساؤل والعجب الاوليان ، والتأمل والاستغراق الخصبان .

* * *

تلك على الاقل هي المفاتن التي أراها في البداية . ولكنني رأيتهـا ايضاً في امراء الفكر الخانع الذين استطعت ان اشهد انتحارهم فيما بعد . ما يهمني ، حقـــاً ، هو المعرفة والوصف ، معرفة ووصف القوة التي تقودهم ، في طريق الوهم العام . وستساعدني الطريقة ذاتها هنا ايضاً . وسيـاعدني ايضاً انني استخدمتها بالفعل في جعلي بحثي هذا قصيراً وفي تلخيصه بدون ابطاء في مثـــال خاص . اريد ان اعرف هل ان المرء يستطيع ، بقبوله حياة لا تذوق فيها ، ان يوافق على ان يعمل ويخلق دون ان يجد في ذلك تذوقاً ، ومـــا هي الطريقة التي تؤدي الى هذه الحريات . اريد ان احرر كوني من اشباحه وأجعله مأهولاً بحقائق الجسد والدم فقط ، تلك الحقائق التي لا استطيع انكارها . استطيع ان أقوم بعمل لاجد ، واختار الموقف الخلاق بدلا من اي موقف آخر . ولكن الموقف اللاجـــدي ، اذا كان سيظل كذلك ، يجب ان يبقى

مدركاً للاسبيته . وكذلك هو الامر مع العمل الفني ، لانه اذا لم يتم احترام وصايا اللاجدوى واذا لم يعبر العمل عن الانفصال والثورة ، واذا ضحى للاوهام وأثار الامل ، فانه يكف عن كونه لاسبيبيـــا . ولن يكون في وسعي ان افصل نفسي عنه بعد ذلك . وقد تجد حياتي معنى فيه ولكن ذلك تافه . ولن يكون ذلك ممارسة للانفصال والعـاطفة ، تلك الممارسة التي تتوج روعة وتفاهة حياة الانسان .

وفي الخلق الذي يكون فيه اغراء التفسير اقوى ، هل يكون في وسع المرء ان يتغلب على ذلك الاغراء ؟ وفي العالم الروائي الذي يكون فيه ادراك العالم الواقعي على أشده ، هل استطيع ان اظل وفياً للاجدوى بدون ان اضحي بها من اجل الرغبة في اصدار الحكم ؟ اسئلة كثيرة يجب بحثها في مجهود أخير نهائي . ويجب ان يكون قد اتضح الآن ماذا تعنيه تلك الأسئلة . انها آخر شكوك ادراك يخشى ان يتخلى عن عظته الأولية الصعبة من اجل وهم نهائي . وما يعتبر خلقاً ، يتم النظر اليه باعتباره أحد المواقف الممكنة بالنسبة للانسان الذي يدرك اللاجدوى ، يعتبر ايضاً كل أساليب الحياة المفتوحة امام هذا الانسان . فالفاتح او الممثل ، والخالق او دون جوان ، قد ينسون ان ممـارستهم العيش لا يمكن ان تستغني عن ادراكهم لصفة العيش المجنونـة ، لان المرء يتعود بسرعة . فالانسان يريد ان يكسب مالاً ليكون سعيداً ، فينفق كل جهوده ويكرس افضل جوانب حياته من اجل كسب ذلك المال . ويتم نسيان السعادة ، ويتم اعتبار الوسيلة هي الغاية . وكذلك فان كل جهود هذا الفاتح ستتحول نحو الطموح ، الذي كان طريقاً نحو حياة افضل . ودون جوان بدوره يستسلم لهذا المصير ، ويحصل على الاشباع من ذلك

الوجود الذي لا قيمة لنبله الا عبر الثورة . فبالنسبة للاول ، ادراك ، وبالنسبة للآخر ، ثورة ، وفي الحالتين تكون اللاجدوى قد اختفت . هنالك الكثير من الآمال المنيدة في القلب البشري ، وغالباً ما ينتهي اشد النـــاس حرماناً وضياعاً بتقبل وهم ما . وتلك الموافقة التي تحفز اليها الحاجة الى السلام تعادل داخلياً الموافقة الوجودية . هنالك اذن آلهة للضياء ، وأصنام للطين . ولكن من الضروري ايجاد الممر الوسط الذي يؤدي الى وجوه الانسان .

الى هنا تعلمنـــا من فشل الحاح اللاجدوى اشياء كثيرة عن ماهية اللاجدوى . وبنفس الطريقة ، اذا كنا سنتعلم شيئاً ، فانه ليكفي ان نلاحظ ان الخلق الروائي يمكن ان يبرز نفس الغموض الذي تبرزه بعض الفلسفات . وهنا استطيع ان اختار توضيحاً لذلك عملاً يتألف من كل ما يشير الى ادراك اللاجــدوى ، والبداية المتجلية ، والجو الواضح . وسترشدنا نتائج ذلك . واذا لم تكن اللاجدوى محترمة فيه ، فسنعرف كيف يدخله الوهم . يكفينا اذن مثل معين ، فكرة ما ، أمانة خالق . وهذا يتضمن التحليل ذاته الذي كنت قد فصّلته حتى الآن .

سأتفحص فكرة من أفكار دوستويفسكي المفضلة . وكان في وسعي ان أدرس أعمالاً اخرى[1] ، ولكن المشكلة متناولة في هذا العمل بصورة

---

(١) أعمـــال مالرو ، مثلاً . ولكن كان سيكون ضرورياً في الوقت نفسه تنـــاول المسألة الاجتماعية التي لا يمكن للفكر اللاجدي ان يتجنبها (حتى اذا كان ذلك الفكر يقدم عدة حلول يختلف كل منها عن الآخر) . وعلى كل حال فيجب ان يضع المرء لنفسه حدوداً .

مباشرة ، من حيث النبل والعاطفة ، كما هو الامر مع الفلسفات الوجودية التي بحثت في أمرها . وهذا التوازي يخدم غرضي .

كيريلوف

يسأل كل ابطال دوستويفسكي انفسهم عن معنى الحياة . وهم في هـذا حديثو الطراز : هم لا يخشون السخرية . وما يميز الحساسية الحديثـة عن الحساسية الكلاسيكية هو ان الأخيرة تسمن على حساب المشاكل الاخلاقية بينما تغتني الاولى من المشاكل الميتافيزيكية . والمشكلة مبحوثة في روايات دوستويفسكي بتركيز لا يمكن ان يستدعي إلا الحلول المتطرفة . فاما ان يكون الوجود وهماً أو انه ابدي . واذا كان دوستويفسكي مقتنعـاً بهذا التساؤل فانه سيكون فيلسوفاً . ولكنه يوضح النتائج التي تخلفهـا تلك الهوايات العقلية في حياة الانسان ، ولذلك فانه فنان . وبين تلك النتائج يتركز اهتمامه بصورة خاصة في النتيجة الاخيرة ، التي يسميها هو الانتحار المنطقي في كتابه « مذكرات كاتب » . وهو يتصور في القطع التي كتبها في كانون الاول ١٨٧٦ تعليلاً عقلياً « للانتحار المنطقي » . ولما كان مقتنعاً بان الوجود البشري هو لا جدوى تامة بالنسبة لمن لا يؤمن بالخلود ، فان اليائس ينتهي الى النتائج التالية :

« لما كان يقـــال لي ، جواباً على اسئلتي عن السعادة ، عبر وساطة ادراكي ، انني لا استطيع ان اكون سعيداً إلا خلال التوافق مع الكل العظيم ، الذي لا استطيع ان اتصوره ، ولن يكون في وسعي يومـاً ان

اتصوره ، فانه لمن الواضح .. »

« ولما كنت اتخذ ، نهائياً ، وبهذا الصدد ، دور المدعي والمدعى عليه معاً ، دور المتهم والقاضي ، ولما كنت اعتبر هذه المهزلة التي اعدتها الطبيعة حمقاء باكملها ، ولما كنت اعتبر استسلامي للدور وقيامي به مهيناً .. »

« بناء على صلاحيتي التي لا يجادل فيها أحد ، باعتباري المدعي والمدعى عليه القاضي والمتهم ، فانني احكم على تلك الطبيعة ، التي جاءت بي بكل قحة الى الكينونة لكي أعاني ، واتعذب – احكم عليها بالاعدام معي . »

لا يبقى في تلك الوضعية إلا هزل قليل . فهذا المنتحر يقتل نفسه لانه مكتئب متضايق على المستوى الميتافيزيكي . انه ينتقم ، بمعنى من المعاني وهذه هي طريقته في اثبات انه « لن يتم الظفر بـه » . ومن المعروف ، على كل حال ، ان الفكرة نفسها متضمنة في كيريلوف ، في « المأخوذين » ولكن بتعميم اروع ، فكيريلوف هو ايضاً من دعاة الانتحار المنطقي . يقول كيريلوف المهندس في مكان مـا انه يريد ان يأخذ حياته لانها « هي فكرته » . ومن الواضح ان الكلمة يجب ان تؤخذ بمعناها المعقول . انه يستعد للموت بسبب فكرة ، او فكر . وهذا هو الانتحار السامي . ونتقدم اكثر ، عبر سلسلة من المشاهد التي يشع فيها ضوء اكثر على قناع كيريلوف ، ويتضح لنا التفكير القاتل الذي يحفزه . والحق ان المهندس يعود الى افكار « المذكرات » . انه يشعر بان الله ضروري وانه يجب ان يكون موجوداً . ولكنه يعرف انه لا يوجد ، وانه لا يمكن ويجب الا يوجد . وهو يستغرب : « لماذا لا تدرك ان هذا يكفي ليكون سبباً

يجعل المرء يقتل نفسه ? » ويتضمن هـــذا الموقف بالنسبة له ، كذلك ، بعض نتائج اللاجدوى . فهو يسمح ، عبر اللاأكتراث ، باستخدام انتحاره لمصلحة قضية يحتقرها . « قررت امس انني لا اكترث . » واخيراً فهو يعد فعلته بشعور مزدوج من الثورة والحرية . » سأقتل نفسي لاعلن عن لاخضوعي ، حريتي الجديدة المرعبة » . لم يعد الأمر متعلقاً بالثأر ، وانما بالثورة . ولهذا فان كيريلوف شخصية لاجدية ، — ومع ذلك ، فبهـذا الشرط الاساسي : انه يقتل نفسه . ولكنه هو نفسه يوضح هذا التناقض : وهو يفعل ذلك بحيث انه يكشف عن السر اللاجدي بكل نقائه . وهو في الحقيقة يضيف الى منطقه القـــاتل طموحاً استثنائياً يهب الشخصية حجمها الكامل : انه يريد ان يقتل نفسه ليكون الهاً .

والتعليل العقلي هنا هو كلاسيكي في وضوحه . فاذا لم يوجـــد الله ، فان كيريلوف هو الله . واذا لم يوجد الله ، فان كيريلوف يجب ان يقتل نفسه . يجب على كيريلوف اذن ان يقتل نفسه ليصبح إلهاً . وهـــذا المنطق لا مجدٍ ، ولكنـــه هو المنطق المطلوب . والشيء المثير ، على كل حال ، هو اعطاء معنى الى تلك القدسية المجلوبة الى الارض . ويسمو الى منزلة توضيح الفرضية القائلة بانه : « اذا كان الله غير موجود ، فانا الله » التي تظل حتى الآن غامضة . ومن المهم ان نلاحظ منذ البـــداية ان الانسان الذي يلقي بذلك الادعاء المجنون هو من هذا العالم حقاً . انـــه يقوم بتمريناته الرياضية كل صباح ليحافظ على صحته ، ويثيره اغتبـــاط شاتوف باستعادة زوجته ، ويتم العثور بعد موته على ورقة كان يريد ان يرسم عليها وجهاً يخرج لسانه « عليهم » . انه طفولي ومنفعل ، وعاطفي ، وقيامي ، وحساس . وليس لديه من السوبرمـــان غير المنطق والانشغـــال

الفكري ، بينما له من الانسان الكاتالوج باكمله . ومع ذلك فانه هو الذي يتحدث بهدوء عن قدسيته . انــه ليس مجنوناً ، وإلا فان دوستويفسكي هو المجنون . فان ما يثيره وهماً من اوهام مرض جنون العظمة . واخذ الكلمات بمعناها الخاص سيكون هنا مضحكاً .

ولكن كيريلوف نفسه يساعدنا على ان نفهمــه . فهو في جواب على سؤال ستافروجين يوضح انه لا يتحدث عن انسان – الهي . وقد يظن ان هذا ينبثق من اهتمامه بتمييز نفسه عن المسيح ، ولكن الامر هو في الحقيقة الحاق للمسيح به . فكيريلوف يتصور للحظة ان المسيح عنـــد موته لم يجد نفسه في الجنة . واكتشف بعــد ذلك ان عذابــه كان بلا ثمرة . ويقول المهندس : « ان قوانين الطبيعة جعلت المسيح يعيش وسط الزيف ويموت من اجل زيف » . والحق ان المسيح يصور هنا الدرامــا البشرية كلها . انه الانسان الكامل ، لأنــه الذي ادرك أشد الوضعيــات لاجدوى . فهو ليس الانسان الالهي ، وانما هو الله الانسان . ونحن مثله ، يمكن لكل منا ان يصلب ويكون ضحية – بل نحن كذلك الى حد ما .

فالقدسية موضوع البحث هي قدسية أرضية اذن . اذ يقول كيريلوف: « بحثت عن صفة قدسيتي ثلاث سنوات وعثرت عليها . ان صفة قدسيتي هي الاستقلال » . ويمكننا هنا ان نرى معنى فرضية كيريلوف : « اذا لم يكن الله موجوداً ، فانا الله » . فان يصبح المرء الهاً ، هو أمر لا يعدو كونه حراً في هذه الارض ، لا أن يخدم كائناً خالداً . وهو قبــل أي شيء آخر ، استنتاج لكل البديهيات من ذلك الاستقلال المؤلم . فاذا كان

الله موجوداً ، فكل شيء يعتمد عليه ، ولا يمكننا ان نفعل شيئاً امام ارادته . واذا لم يكن موجوداً ، فكل شيء يعتمد علينـا . وبالنسبة لكيريلوف ، كما هو الامر بالنسبة لنيتشه ، يكون قتل الله في ان يكون المرء نفسه الهاً ، وان يدرك في هذه الارض الحياة الابدية التي يتحدث عنها الانجيل»[1] .

بيد انه اذا كانت هذه الجريمة الميتافيزيكية كافية لتحقق الانسان ، فلماذا يضيف الانتحار ؟ لماذا يقتل الانسان نفسه ويغادر هذا العالم بعد ان يكون قد حقق حريته ؟ هذا هو تناقض . وكيريلوف يدرك ذلك جيداً ، لانه يضيف : « اذا شعرت بذلك ، فأنت قيصر ، وبدلاً من ان تقتل نفسك ، فانك ستعيش ملفعاً بالمجد » . ولكن الناس عامة لا يعرفون ذلك . انهم لا يشعرون بذلك . فهم تمامـاً كما كانوا في زمن بروميثيوس يحتفظون بآمال معينة عمياء[2] . انهم يحتاجون الى من يدلهم على الطريق ، ولا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً بدون الارشاد والوعظ . ولهذا فان كيريلوف يجب ان يقتل نفسه لانه يحب البشرية . يجب ان يُري اخوانه ممراً ملكياً صعباً يسير فيه هو قبلهم . انه انتحار توجيهي . وهكذا فكيريلوف يضحي بنفسه . بيد انه اذا كان سيصلب ، فانه لن يذهب ضحية . انه يظل الله الانسان ، مقتنعـاً بموت بلا مستقبل ،

---

(١) ستافروجين : « أتؤمن بحياة ابدية في العالم الآخر ؟ » ، كيريلوف : « كلا ، ولكن بالحياة الابدية في هذا العالم » .

(٢) لقد اخترع الانسان الله فقط ليقتـل نفسه . هذا هو ملخص تاريخ الكون حتى هذه اللحظة .

مشبعاً بسوداوية انجيلية . انه يقول : « أنا شقي لأنني مضطر الى اعلان حريتي » . ولكنـــه ما ان يموت ، ويعرف البشر اخـيراً ، فسيسكن هذه الارض قياصرة ، ويضيء فيها المجد الانساني . وتكون اطلاقة مسدس كيريلوف اشارة الثورة الاخيرة ، وهكذا فليس اليأس هو الذي يدفعه الى الموت ، وانما حبه لجاره من اجله هو . وقبل ان تنتهي بالدماء تلك المغامرة الروحيه التي لا يمكن وصفها ، يدلي كيريلوف بملاحظة هي قدم العذاب البشري : « كل شيء حسن » .

فكرة الانتحار هذه عند دوستويفسكي ، اذن ، هي فكرة لاعجدية حقا . دعنا نلاحظ فقط قبل ان نستمر ان كيريلوف يظهر ثانيـة في شخصيات اخرى تحرك هي نفسها افكاراً لاعجدية اخرى . فان ستافروجين وايفان كارامازوف يختبران الحقائق اللاعجدية في الحيــاة العملية . انهما اللذان حررهما موت كيريلوف . وهما يحاولان ان يكونا قياصرة ، ويعيش ستافروجين حياة « ساخرة التناقض » ، ونحن نعرف جيداً من أية ناحية . انه يثير الكراهية حوله ، ومع ذلك فان مفتاح الشخصية موجود في رسالته الوداعية : « لم يكن في وسعي ان احتقر اي شيء » . انه قيصر في اللااكتراث . وكذلك ايفان ، برفضه التنـازل عن قوى الذهن الملكية . وقد يرد على اولئك الذين هم ، مثل أخيه ، يثبتون بحياتهم انه من الضروري للمرء ان يخضع ويهين نفسه لكي يؤمن ، بقوله ان الوضعية مخجلة . ومفتاحه يتمثل في « كل شيء مسموح » مع اضافة ظل مناسب من السوداوية . وهو ينتهي بالجنون طبعاً ، كنيتشه الذي هو اشهر مغتالي الله ، ولكن هذه المجازفة جديرة بأن يقوم بها المرء ، وحين يواجّه الذهن اللاعجدي بمثل هذه النهـايات الفادحة ، فان دافعه

الاسامي هو ان يسأل : « ماذا يثبت ذلك ؟ » .

* * *

وهكذا فان القصص ، « كالمذكرات » تمعن في بحث مسألة اللاجدوى . انها تسبغ المنطق على الموت ، والتسامي ، والحرية « المرعبة » ، ومجد القياصرة ، ويكون كل ذلك بشريا . فكل شيء حسن ، وكل شيء مسموح ، ولا شيء كريه — هـــذه هي احكام لاجدية . ولكن اي خلق مدهش هذا الذي تلوح لنا فيه مخلوقات النار والجليد هذه مألوفة بالنسبة الينا . فعالم اللااكتراث ، ذلك العـالم المنفعل في صميم قلوبهم ، لا يلوح لنـــا غريباً او هائلا على الاطلاق . اننا نرى فيه مشاكلنا ومتاعبنا اليومية . ولعله لم يتفوق على دوستويفسكي كاتب آخر في اعطاء العالم اللاجدي مثل هذه المفاتن المألوفة المعذبة .

ومع ذلك ، فما هو استنتـــاجه ؟ مقتطفان اثنان سيكشفان عن الانعكاس الميتافيزيكي الكامل الذي يؤدي بالكاتب الى إتجاهات اخرى . فحين اثار نقاش ذلك الذي يرتكب الانتحار المنطقي احتجاج النقاد راح دوستويفسكي في الاجزاء التالية من « المذكرات » يوضح موقفه وينتهي هكذا : « اذا كان الايمان بالخلود ضرورياً الى هذا الحد بالنسبة للكائن البشري (انه بدونه يصل الى حد الانتحـار) ، فان ذلك يجب ان يكون اذن الحـــالة الطبيعية للبشرية . ولما كانت هذه هي الحالة فان خلود الروح البشرية موجود بلا شك » . ونجد ثانية في الصفحـــات

الاخيرة من قصته الاخيرة ، في ختام ذلك الصراع الهائل مع الله يسأل بعض الاطفال اليوشا : « كارامازوف ، أصحيح ما يقوله الدين من اننا جميعاً سننهض من الموت واننا سنرى بعضنـا بعضاً ثانية ؟ » ويجيب اليوشا : « بالتأكيد ، سيرى بعضنا بعضاً ثانية ، وسيخبر بعضنا بعضاً بغبطة بكل ما كان قد حدث » .

وهكذا يندحر كيريلوف ، وستافروجين ، وايفـان . وترد قصة « الاخوة كارامازوف » على قصة « المأخوذين » ، وهذه هي نتيجـة حقا . وليست حالة اليوشا غامضة غموض حالة الأمير مشكين . فشكين المريض يعيش في حاضر دائم ، مصطبغ بالابتسامات واللااكتراث ، وقد تكون تلك الحالة السعيدة هي الحياة الأبدية التي يتحدث عنها الأمير . أما اليوشا ، فانه ، بالعكس ، يقول : « سنلتقي ثانيـة » . وليس هنالك بعد هذا اي انتحار او جنون . فما هي فائدة ذلك لكل من يوقن بالخلود وبغبطتـه ومباهجه ؟ ان الانسان يتخـلى عن قدسيته من أجل السعادة . « سيخبر بعضنا بعضاً بغبطة بكل ما كان قد حدث » . وهكذا ايضاً ، فان مسدس كيريلوف انطلق في مكان ما من روسيا ، ولكن العالم ظل يحتفظ بآماله العميـاء . ولم يفهم البشر « ذلك » .

وبالنتيجة ، فانه ليس قاصاً لا مجدياً ذلك الذي يتحدث الينا ، وانما هو قاص وجودي . وهنا ايضاً تكون القفزة مؤثرة وهي تهب نبلها الى الفن الذي يلهمها . انها موافقة مثيرة ، تحيط بها الشكوك والالغاز ، غير اكيدة ، وملتهبة الحماسة . لقد كتب دوستويفسكي عن « الاخوة كارامازوف »

قائلاً : « المسألة الاولى التي سأتتبعها في هذا الكتاب هي المسألة ذاتها التي ظللت اعاني منها طيلة حياتي سواء كان ذلك بصورة مدركة او غير مدركة : وجود الله . » ومن الصعب الاعتقاد بان قصة واحدة كانت كافية لتحول عذاب حياة كاملة الى يقين مغتبط . ولقد كتب احد المعلقين قائلاً بحق:[1] ان دوستويفسكي هو الى جانب ايفان وان فصول التأكيد الايجابي استغرقت ثلاثة اشهر من مجهوداته ، بينما لم يستغرقه ما سماه « الالحاد » غير ثلاثة اسابيع قضاها في حالة من الهياج . وليست هنالك شخصية واحدة بين شخصياته لا تكمن الشوكة في جسدها ، أو لا تزيد الامر سوءاً او لا تبحث عن العلاج في التأثر الحسي او الخلود .[2] وعلى اي حال ، دعنا نظل في هذا الشك . وهنا نجد عملاً يسمح لنا ، بنقله للاضواء والظلال بطريقة اشد تأثيراً من ضوء النهار ، ان نقبض على صراع الانسان ضد آماله . وحين يصل الخالق الى النهاية فانه يقوم بالاختيار بين شخوصه . ويتيح لنا ذلك التناقض ان نتوصل الى تمييز . وذلك العمل ليس لاعجدياً ، وانما هو عمل يتأمل في مشكلة اللاجدوى .

وجواب دوستويفسكي هو الخضوع والمهانة ، « الخجل » بالنسبة لستافروجين . وبالعكس ، فان العمل اللاعجدي لا يقدم جواباً ، وهذا هو كل الفرق . دعنا نلاحظ هذا بعناية في النتيجة : فما يناقض اللاجدوى في ذلك العمل ليس صفته المسيحية ، وانما اعلانه عن حياة مستقبلة . فمن

(١) بوريس دي شوبلتزر .

(٢) ملاحظة جيد الغريبة النافذة : معظم شخصيات دوستويفسكي متعددة الجوانب .

الممكن الجمع بين اللاجدوى والمسيحية ، وهنالك امثلة عن مسيحيين لا يؤمنون بحياة المستقبل . ومن ناحية العمل الفني ، يجب ان يكون ممكناً لذلك تعريف واحد من اتجاهات التحليل اللاجدي الذي كان ممكناً ان يُستَبَقَ في الصفحات الماضية . انه يؤدي الى التأمل والامعان في « لا جدوى الانجيل » . وهو يلقي ضوءاً على هذه الفكرة ، الخصبة بتأثيراتها اللامباشرة ، ان المعتقدات لا تمنع عدم التصديق . بالعكس ، من السهل ان نرى ان مؤلف « المأخوذين » ، الذي يألف هذه الممرات ، اتخذ لنفسه في النتيجة طريقاً مختلفة . ومن الممكن حقاً تلخيص الجواب المدهش الذي يقدمه الخالق الى شخصياته ، الذي يقدمه دوستويفسكي الى كيريلوف ، هكذا : الوجود وهمي وأبدي .

الخلق العابر

أفهم في هذه النقطة ، اذن ، أن الأمل أمر لا يمكن تجنبه الى الابد ، وانه يستطيع ان يقلق حتى اولئك الذين ارادوا ان يتحرروا منه . وهذا هو اهتمامي بالاعمال التي تم بحثها حتى الآن . استطيع ، على الاقل في دنيا الخلق ، ان اضع قائمة ببعض الاعمال اللاجدية حقاً [1] . ولكن كل شيء يجب ان تكون له بداية . وموضوع هذا البحث أمانة معينة . فالكنيسة كانت خشنة الى هذا الحد مع المهرطقين لانها حكمت بانه ليس هنالك عدو أسوأ من طفل تائه . ولكن سجل الاعتداآت الكنسية واستمرار التيارات المانيكية أديا الى بناء عقيدة عمياء متعصبة اكثر مما

(١) « موبي دك » لميلفيل ، مثلاً .

أدت الى ذلك كل الصلوات . وينطبق هذا نفسه على اللاجـــدوى ، مع الفارق . فالمرء يدرك اتجاهه باكتشافه الممرات التي تشذ عنه وتتيه . وفي نتيجة التعليل العقلي اللاجدي نفسها ، في أحد المواقف التي يفرضها منطقه ، لا يكون من مسائل اللااكتراث ان نجد الأمل يعود ثانية تحت واحـد من اقنعته المؤثرة . وهذا يبين صعوبة التنسك اللاجدي . وهو يكشف قبل اي شيء آخر عن الحاجة الى تيقظ دائم ، وهكذا فهو يؤكد على الخطة العامة في هذا البحث .

بيد انه اذا لم يحن الوقت بعد لتعداد الأعمال اللاجدية ، يمكننا ان نصل الى نتيجة بشأن الخلق اللاجدي ، واحدة من تلك النتائج التي يمكن ان تكمل الوجود اللاجدي . فلا يمكن ان يخدم الفن شيء مثـل الفكر السلبي ، لأن مداخله المظلمة المهانة ضرورية لفهم العمل المظيم تماماً كملاقة الاسود بالنسبة للابيض . فالعمل والخلق ، « من اجل لا شيء » ، والنحت في الطين ، ومعرفة ان مـا يخلقه المرء ليس له مستقبل ، وان يرى المرء عمله يدمر في يوم ، بينما يدرك ان ليس لهذا اهمية اكثر من اهمية البناء لقرون – هذه هي الحكمة الصعبة التي يقول بها اللاجدي . والقيام بهاتين المسؤوليتين في وقت واحـــد ، النفي من ناحية ، والتضخيم من الناحية الاخرى ، هو الطريق المفتوح أمام الخالق اللاجدي . يجب عليه ان يعطي الخواء ألوانه .

ويؤدي هذا الى مفهوم خاص عن العمل الفني . فغالباً مـا يتم النظر الى عمل الخالق باعتباره سلسلة من الادلة المنعزلة ، وهكذا يتم الخلط بين

الفنان والأديب . والفكر العميق هو في حالة من الصيرورة الدائمة ، انه يتبنى تجربة حياة ويأخذ شكلها . وكذلك ، فان الخلق الوحيد للانسان يتعزز بمظاهره المتعددة المتتابعة : اعماله . فهي ، واحداً بعد الآخر ، يكمل احدها الآخر ، ويناقض بعضها بعضاً ايضاً . واذا جعل شيء ما ذلك الخلق ينتهي فانه ليس النداء المنتصر الوهمي الذي ينادي به الفنان الاعمى : « لقد قلت كل شيء » ، وانما هو موت الخالق الذي يغلق تجربته وكتاب نبوغه .

وأما المجهود ، وذلك الادراك الذي هو أسمى من الانسان ، فهما لا يتضحان للقارىء بالضرورة . وليس هنالك سر غامض في الخلق البشري ، وانما تقوم الارادة بأداء هذه المعجزة ، بيد انه ، على الاقل ، لا يوجد خلق بدون سر . والحق ان تتابعاً من الاعمال يمكن ان يكون فقط سلسلة من متقاربات الفكر ذاته . ولكن من الممكن فهم وتصور نوع آخر من الخالق الذي يعمل بواسطة وضع الامور احدها بجانب الآخر . وقد تلوح اعمالهم خالية من العلاقات فيما بينها ، وهي ، الى حد ما ، متناقضة . ولكننا اذا نظرنا اليها مجتمعة ، وجدناها تستعيد تصنيفها الطبيعي . انها تستمد من الموت ، مثلاً ، مغزاها التعريفي . وهي تستمد أوضح أضوائها من حياة مؤلفها . وفي لحظة الموت لا يكون تتابع اعماله الا مجموعة من النتائج الفاشلة . ولكن ، اذا كان لتلك النتائج الفاشلة نفس النغمة ، فان الخالق قد نجح في تكرار صورة حالته هو ، وجعل الهواء يتردد بصدى السر العقيم الذي كان يملكه .

والمجهود المبذول للسيطرة كبير هنا . ولكن الذكاء البشري قادر

على اكثر من ذلك . فلن يشير الا الى المظهر الطوعي للخلق بوضوح . وكنت في مكان آخر قد ذكرت انــه ليس للارادة البشرية هدف آخر غير الاحتفاظ بالوعي . ولكن هذا لا يمكن ان يتم بدون نظام وضبط . والخلق هو أشد مدارس الصبر والوضوح تأثيراً . وهو ايضاً الدليـــل القـــاطع على كرامة الانسان الوحيــدة : الثورة المتلبمة ضد حالته ، والاستمرار المصر في مجهود يعتبر عقيماً . انه يستدعي المجهود اليومي ، والسيطرة الذاتية ، والتقدير المضبوط لحدود الحقيقة ، والقياس ، والقوة . وهو يؤلف تنسكاً . وكل ذلك من اجل « لا شيء » ، لتكرار الزمن وتعيينه . ولعل للعمل الفني العظيم أهمية أقل ، بحد ذاته ، من المعاناة التي يتطلبها من الانسان ، والفرصة التي يقدمها له ليتغلب على اشبــاحه ويقترب اكثر قليلاً من واقعه العاري .

* * *

دعنا لا نخطيء بخصوص الجماليات . انني لا أدعو هنــا الى البحث الصبور ، والتوضيح الدائم العقيم لفرضية ما ، بالعكس ، بشرط ان أكون قد جعلت نفسي مفهوماً بوضوح . فرواية الهدف المفروض ، والعمل الذي يثبت ، بــل اشدها اثارة للكراهيــة ، هو ذلك العمـــل الذي غالباً ما يكون من الهام الفكر المغرور المكتفي بنفسه . فأنت تعرض الحقيقة التي تشعر بيقينك من ملكيتك لها ، ولكن هذه فِكَر يطلقها المرء ، والفِكَر تختلف عن الفِكْر ، انها نقيضته . وهؤلاء الخالقون هم فلاسفة خجلون من انفسهم . امــا اولئك الذين أتحدث عنهم ، او أتخيلهم ، فهم ، بالعكس ، مفكرون واضحون . ففي نقطة معينــة ،

حين يعود الفكر على نفسه ، يرفعون عالياً صور اعمالهم كالرموز الواضحة لفكر محدود ، فانٍ ، ثائر .

ولعلهم يثبتون شيئاً . ولكن تلك البراهين هي تلك التي يقدمهـــا الروائيون لأنفسهم ، وليس للعـالم بصورة عامة . والامر الاساسي هو ان الروائيين يجب ان ينتصروا في الملموس وان هذا هو ما يؤلف نبلهم . وهذا الانتصار الجسدي تماماً قد أعده لهم فكر تم فيه اخضـاع القوى التجريدية . وحين يكونون كذلك تماماً ، يجعـل الجسد ذلك الخلق في الوقت نفسه يسطع بكل بريقه اللاعجدي . وبعــــد كل ذلك ، فان الفلسفات الساخرة المتعارضة تنتج اعمالاً متحمسة محتدمة .

واي فكر يتخلى عن الوحدة انما يعظم التنوع والاختلاف ، وهــذا هو وطن الفن . والفكر الوحيد الذي يحرر الذهن هو ذلك الذي يتركه وحده ، واثقاً من حدوده ونهايته المقتربة ، لا تغريه عقيدة مـــا . انه ينتظر نضوج العمل ، والحياة . وبانفصال العمل عنه ، فانه يعطي مرة اخرى صوتاً غير مكتوم لروح محررة ابداً من الأمل . او انه لن يعطي صوتاً لشيء ، اذا كان الخالق ، وقد أتعبه نشاطه ، يميل الى النكوص . وهذا معادل .

* * *

وهكذا فانني اطلب من الخلق اللاعجدي ما طلبته من الفكر – الثورة ، والحرية ، وبعد ذلك فانه سيكشف عن تفاهته التامة . وفي ذلك المجهود اليومي الذي تمتزج فيه حماسة الانفعال والذكاء ويبهج احدهمـــا الآخر يكتشف الانسان اللاعجدي ضبطاً يؤلف بالنسبة له أعظم قواه . وهكذا ،

فان الانهماك المطلوب ، والمتابعة والوضوح تشبه موقف الفـاتح . فالخلق يشبه اعطاء شكل لمصير المرء . وبالنسبة لكل تلك الشخصيات ، تقوم اعمالها بتعريفها ، تماماً كما تسبغ هي التعريف على الاعمال . لقد علمنـا المثل هذا : ليس هنالك حد بين الكينونة والظهور .

دعني اكرر . ليس لكل هـذا اي معنى حقيقي . وفي الطريق نحو تلك الحرية ما يزال هنالك تقدم يجب تحقيقه . والجهود النهائي بالنسبة لتلك الاذهان المتعلقة ببعضها ، الخالق او الفاتح ، هو ان يحاولوا ان يحرروا انفسهم من الامور التي يضطلمون بهـا ايضاً : ان ينجحوا في الاقرار بأن ذلك العمل نفسه ، سواء كان فتحاً ، أو غراماً ، او خلقاً ، قد لا يكون ايضاً ، وبذلك فهم يحققون التفاهة الكاملة لأية حيـاة فردية . والحق ان ذلك يعطيهم حرية اكثر في ادراك ذلك العمل ، تماماً كما ان وعيهم للاجدوى الحياة خولهم ان يغرقوا فيها بكل افراط .

كل ما يلبقى هو مصير لا يكون الا حصاده قتالاً . وخارج هـذه الصفة القتالة في الموت ، يكون كل شيء ، سواء الغبطة أو السعـادة ، حرية . ويظل عالم يكون الانسـان سيده الوحيد أما ما ربطه فهو وهم عالم آخر . وأما حصاد فكره ، الذي يكف عن كونه نابذاً ، فانـه يزدهر في صور . انه يمرح - بالاساطير ، حقاً ، ولكنها اساطير لا تحتوي على عمق غير عمق العذاب البشري ، وهي مثله غير مستنفـدة . ليست الخرافة المقدسة التي تسلي وتعمي ، وانما الوجه الارضي والحركة والدراما الارضيتان ، التي تتلخص فيها حكمة صعبة وعاطفة منفعلة قصيرة العمر.

اسطورة سيزيف

حكمت الآلهة على سيزيف بان يرفع صخرة بلا انقطاع الى قمة الجبل حيث تسقط الصخرة بسبب ثقلها ثانية . لقد ظنوا لسبب معقول انه ليس هنالك عقاب ابشع من العمل التافه الذي لا أمل فيه .

فاذا صدق المرء ما يقوله هوميروس ، فان سيزيف كان أشد الفانين حكمة وحصافة . وتروي رواية أخرى ، على كل حال ، انه كان ميالاً الى مهنة قاطع الطريق . ولست أرى اي تناقض في هذا . وقد اختلفت الآراء بشأن السبب الذي جعله يعمل بلا جدوى في العالم السفلي . ولنبدأ بالقول بانه متهم بالسخرية بالآلهة . لقد سرق اسرارها . فقد اختطف جوبيتر ايجينا ابنة ايسوبس ، وتأثر الوالد من اختطافها وشكا امره الى سيزيف. ولما كان سيزيف يعلم بأمر الاختطاف فقد عرض على ايسوبس ان يخبره عنه على شرط ان يعطي ماء الى قلعة كورنث . لقد فضل بركة الماء على الرعد السماوي ، وعوقب على ذلك في العالم السفلي . ويخبرنا هوميروس ايضاً بأن سيزيف كان قد وضع الموت في الاغلال . ولم يحتمل بلوتن منظر امبراطوريته الصامتة المهجورة ؛ فأرسل إله الحرب الذي حرر الموت من يد داحره .

ويقال ايضاً ان سيزيف ، لقربه من الموت ، اندفع الى اختبــار حب زوجته ، وطلب منها ان تلقي بجثته غير المدفونة وسط الساحة العامة. ويستيقظ سيزيف في العالم السفلي . وهناك ، حين ضايقته الطاعة المناقضة للحب البشري ، حصل على الاذن من بلوتن بالعودة الى الأرض لكي يعاقب زوجته . ولكنه حين رأى وجه هذا العالم مرة أخرى ، ونعم بالمـــاء والشمس ، والصخور الدافئة والبحر ، لم يرد ان يعود الى الظلام الجهنمي. ولم تجد معه النداءات وعلامات الغضب والتحذيرات . وعاش عدة سنوات مواجهاً تقوس الخليج ، وتألق البحر ، وابتسامات الارض . وصار ضرورياً ان يصدر مرسوم من الآلهة . واقبل عطارد (اله البلاغــة) وقبض على الرجل الصفيق من ياقته ، وبعد ان اختطفه من مسراته ، قــاده بالقوة الى العالم السفلي ، حيث كانت الصخرة معدة له .

لقد فهمت الآن ان سيزيف هو البطل اللاجدي . وهو كذلك عـــبر عواطفه بقدر كونه كذلك عبر عذابه . واحتقاره للآلهة ، وكرهه الموت وعاطفته المتحمسة للحياة ، أدت تلك الأمور كلها الى ذلك العقاب الرهيب الذي يكرس فيه الكيان كله من أجل تحقيق اللاشيء . وهذا هو الثمن الذي يجب ان يدفع لقاء انفعالات وعواطف هذه الأرض . ولا شيء يقال لنا عن سيزيف في العالم السفلي ، لأن الاساطير تعد للخيال لينفخ الحيــاة فيها . أما بالنسبة لهــــذه الأسطورة ، فان المرء يرى مجهود الجسد كله يتوتر ليرفع الصخرة ، ليحركها ، وليدفعها الى الاعلى ، فوق منحدر يرتفع مائة مرة . ويرى المرء الوجه ملتوياً ، والخــد متوتراً بجانب الصخرة ، والكتف وهو يعانق الكتلة المغطاة بالطين ، والقدم وهي تستند لتدفــع والبداية الجديدة والساعدين وهو يشمرهما ، واليدين البشريتين المغطــاتين

ببقع الطين . وفي نهاية مجهوده الطويل الذي يقاس بفضاء لا جو له ولا سماء ، وزمن لا عمق فيه ، يتم تحقيق الهدف . ثم يرقب سيزيف الصخرة وهي تتدحرج الى اسفل في لحظات معدودات ، نحو ذلك العالم السفلي الذي يجب عليه ان يرفعها منه ثانية نحو القمة . ويعود الى السهل .

واثناء تلك العودة ، تلك الوقفة ، يهمني امر سيزيف . الوجه الذي يشتد قريباً من الصخور هو نفسه صخرة ! انني ارى ذلك الرجل وهو يعود هابطاً الى اسفل بخطوة ثقيلة ، ولكنها منتظمة ، نحو العذاب الذي لا يعرف نهايته . تلك الساعة ، كالفضاء المتنفس ، بالتأكيد ، كيقين عذابه تلك هي ساعة ادراكه . وفي كل لحظة من هذه اللحظات التي يغادر فيها الذروة ويهبط تدريجياً نحو مكمن وحوش الآلهة ، يكون اسمى من مصيره . يكون اقوى من صخرته .

فاذا كانت هذه الاسطورة تضم مأساة ، فذلك لان بطلها مدرك . اذ اين سيكون عذابه ، حقاً ، اذا كان الأمل في النجاح يرفعه في كل خطوة؟ ان العامل اليوم يشتغل في كل يوم من ايام حياته بنفس الامور ، وليس هذا المصير أقل لا جدوى . ولكنه يكون مأساة فقط في اللحظات النادرة التي يكون فيها مدركاً . وسيزيف ، بروليتاري الآلهة ، الذي لا قوة له ، والثائر ، يعرف كل مدى حالته الشقية البائسة : وذلك هو ما يفكر به اثناء هبوطه . والوضوح الذي كان سيؤلف عذابه يتوج في الوقت نفسه انتصاره . وليس هنالك مصير لا يمكن ان يعلوه الاحتقار .

* * *

فاذا كان الهبوط يتم احياناً بأسى ، فانه يمكن ان يتم بغبطة ايضاً . وهذه الكلمة لا تضم اكثر مما ينبغي . وانني لاتصور سيزيف ثانية وهو يعود نحو الصخرة ، والاسى كان في البداية . وحين تلشبث صور الأرض بشدة بالذاكرة ، وحين يشتد الحاح نداء السعادة ، يحدث ان السوداوية تنبثق في قلب الانسان : وهذا هو انتصار الصخرة ، هذه هي الصخرة ذاتها . فالحزن الذي لا حد له اثقل من أن يحتمل . وهذه هي ليلةرعبنا وعذابنا . ولكن الحقائق الساحقة تفنى بالاعتراف بها . وهكذا فان اوديب يطيع المصير في البداية ، دون ان يكون عالماً به . ولكن منذ اللحظة التي يعرف فيها ، تبدأ مأساته . الا انه في الوقت نفسه ، حين يكون أعمى ، يائساً ، يدرك ان الرباط الوحيد الذي يربطه بالعالم هو اليد الباردة لفتاة . ثم تنبثق ملاحظة هائلة : « بالرغم من كل هذه المعاناة ، فان تقدم سني ، ونبل روحي يجعلاني أنتهي الى ان كل شيء حسن » . واوديب (سوفوكليس) ، مثل كيريلوف (دوستويفسكي) يقدم وصفة الانتصار اللاعجدي بهذا . وهكذا تثبت الحكمة القديمة البطولة الحديثة .

ولا يكتشف المرء اللاجدوى دون ان يشعر بالميل الى كتابة وصفة للسعادة . « ماذا ؟-بمثل هذه الطرق الضيقة — ؟ » هنالك عالم واحد فقط ، على كل حال . والسعادة واللاجدوى طفلان للارض ذاتها . وهما لا تنفصلان . ومن الخطأ القول بأن السعادة تنبثق بالضرورة من الاكتشاف اللاعجدي . ويحدث كذلك ان الشعور باللاجدوى ينبثق من السعادة . ويقول اوديب : « انتهى الى كل شيء حسن » . وتلك ملاحظة مقدسة . انها تتردد كالصدى في عالم الانسان الموحش المحدود . وهي تعلمنا ان كل شيء لم يستنفد حتى الآن . وهي تطرد من هذا العالم إلهاً كان قد

جاء اليه وهو غير قانع ، مفضلاً العذاب التافه . انها تجعل المصير أمراً بشريا ، يجب ان تتم تسويته بين البشر .

يكن كل سرور سيزيف الصــــامت هنا . ان مصيره يخصه هو ، وصخرته هي شيئه هو . وكذلك فان الانسان اللامجدي ، حين يتأمل في عذابه ، 'يصمِّت' كل الاصنــام . وفي الكون الذي يعود فجأة الى صمته ، تنبثق الاصوات الصغيرة المتسائلة التي لا حصر لهـــا . وهي ، بكونها غير مدركة ، ونداءات خفية ، ودعوات من كل الوجوه ، الثمن والنقيض الضروريان للنصر . فليست هنالك شمس بلا ظل ، ومن الضروري ان يعرف المرء الليــل . والانسان اللامجـدي يقول نعم ، ولن يكف عن بذل مجهوده . فاذا كان هنالك مصير شخصي ، فليس هنالك قدر أسمى ، او ان هنالك واحداً على الأقل يستنتج انه حتمي ، ممقوت . أما بالنسبة لبقيـــة الامور ، فهو يعرف انه سيد ايامه . وفي اللحظة الدقيقة التي ينظر فيها الانسان الى الخلف ليستعرض حياته ، حين يعود سيزيف الى الصخرة ، في ذلك الدوران الضئيل يتأمل في تلك السلسلة من الفعاليات اللامرتبطة ببعضها ، التي تصبح مصيره ، الذي يخلقه هو ، والذي يمتزج تحت عين ذاكرته ، وسرعان ما يختم عليه موته . وهكذا فهو يستمر في سيره ، مقتنعـــاً ، بالاصل البشري تماماً لكل مــا هو بشري ، كالأعمى المتلهف الى الرؤية ، الذي يعرف ان الليل لن ينتهي أبداً . والصخرة ما تزال تتدحرج .

سأترك سيزيف عند قاعدة الجبـــل ! فالمرء دائماً يجد عبئه ثانية .

ولكن سيزيف يعلمنا الأمانة الأسمى ، التي تنفي الآلهة وترفع الصخور . وهو ايضاً ينتهي الى ان كل شيء حسن . وهذا الكون الذي يظل الآن بلا سيد ، يلوح له غير عقيم ، وغير تافه . فكل ذرة من تلك الصخرة ، وكل قطعة معدنية من ذلك الجبل الذي يملأه الليل ، بحد ذاتها تؤلف عالماً . والصراع نفسه نحو الأعالي يكفي ليملأ قلب الانسان . ويجب على المرء ان يتصور سيزيف سعيداً .



ملحق

الامل واللاجدوى في مؤلفات فرانز كافكا

يتألف فن فرانز كافكا كله من قسر القارىء على اعـــادة القراءة ونهاياته ، او عدم وجود النهايات لديه ، توحي بتفسيرات هي ، على كل حال ، غير معطاة بلغة واضحة ، وانما قبل ان يلوح انها مبررة ، تتطلب اعادة قراءة القصة من وجهة نظر اخرى . هنالك احياناً امكانية مزدوجة للتفسير ، ومن هنا تنبثق الحاجة الى قراءتين . وهذا هو ما كان المؤلف يريده . ولكن سيكون من الخطأ ان نحاول ان نفسر كل شيء عند كافكا بالتفصيل . فالرمز هو دائماً عام ، ومهما كانت الترجمة مضبوطة ، فان الفنان لا يستطيع ان يعيد اليه الا حركته : لأنـــه ليس هنالك تفسير كلمة بكلمة . واكثر من ذلك ، فليس هنالك شيء اصعب على الفهم من العمل الرمزي . فالرمز دائماً يسبق ويفوق من يستخدمه ويجعله يقول في الواقع اكثر مما هو مدرك لتعبيره عنه . وفي هذا الصدد ، فـان افضل وسائل الامساك بالرمز لا تتمثل في اثارته ، وانما في البدء بالعمل بدون موقف سابق ، وعدم البحث عن صفاته الخفية . ومن العدل بالنسبة لكافكا على وجه التخصيص الاتفاق مع أسسه وقواعده ، وتنـاول الدراما عبر سطحها الخارجي ، والقصة عبر شكلها .

للوهلة الاولى ، وبالنسبة للقارىء الذي يتناوله بالصدفة ، يلوح ان مغامرات مثيرة مقلقة تدفع بشخصيات مزلزلة ملاحقة نحو متابعة مشاكل لا تضعها هي . ففي « المحاكمة » نجد جوزيف ك. متهماً ، ولكنه لا يعرف بماذا . وهو بلا شك متلهف للدفاع عن نفسه ، ولكنه لا يعرف لماذا . ويجد المحامون قضيته صعبة . وفي الوقت نفسه فانه لا يهمل الحب وتناول الطعام او قراءة صحيفته . ثم يحاكم ، ولكن غرفة المحكمة مظلمة جداً ، وهو لا يفهم الكثير ، وانما يفترض فقط انه محكوم ، وانما بماذا ؟ انه لا يتساءل . وهو في بعض الاحيان يشك بذلك ، ولكنه يستمر في بعض الاحيان يشك بذلك ، ولكنه يستمر في العيش . ويأتي بعد ذلك سيدان مهذبان ليدعواه الى مرافقتهما ، وهما يقودانـــه بكل مجاملة الى ضاحية بائسة ، ويضعان رأسه على صخرة ويقطعان رقبتـه . ولا يقول المحكوم قبل الموت غير : « مثل كلب » .

وهكذا نرى انه من الصعب التحدث عن رمز في حكاية صفتها الاشد وضوحاً هي الطبيعية . ولكن الطبيعية نوع صعب على الفهم . وهنـالك أعمال أخرى (أقل واندر حقاً) نجد فيها الشخصيات تعتبر ما يحدث لها امراً طبيعياً . وبتعارض غريب ، ولكنه واضح ، كلما كانت مغامرات الشخصية استثنائية ، زادت طبيعية القصة : ويكون ذلك متنـاسباً مع التحول الذي نشعر به بين غرابة حياة انسان والبساطة التي يقبل بهـا الانسان تلك الحياة . ويلوح ان هذه الطبيعيـــة هي طبيعية كافكا . وبالضبط ، يدرك المرء ما تعنيه « المحاكمة » . لقد تحدث النـــاس عن صورة للوضعية البشرية . حقاً . ومع ذلك فانهـا أبسط وأشد تعقيـداً معاً . اعني ان مغزى القصة هو اكثر خصوصية ، وشخصي اكثر ، بالنسبة

لكافكا . فالى حد ما ، نجد انه هو المتحدث ، رغم انــه يعترف بي . انه يعيش ويُحكم عليه . وهو يعرف هذا من الصفحات الاولى للقصة التي يتتبعها في هذا العالم ، واذا حاول ان يرافق هذا فانه يفعل ذلك بدون دهشة . ولن يتكشف عن استغراب كاف من عدم وجود الاستغراب . ويتم عبر مثل هذه التناقضات ادراك العلامات الاولى للعمل اللاجدي . فالذهن يسبغ على الملموس مأساته الروحية ، وهو يستطيع ان يفعـــل ذلك فقط بتعارض دائم يضفي على الالوان القوة على التعبير عن الخواء ، ويضفي على الحركات اليومية الاعتيادية القوة على ترجمة المطامح الابدية .

وكذلك فان « القلعة » ربما تكون لاهوت الفعالية ، ولكنها قبـل اي شيء آخر التجربة الفردية لروح تبحث عن عطائها المقدس ، لرجـل يطلب من موضوعات عالمه ان تخبره بسرها الملكي ، وللنساء ، علامات الاله الذي ينام فيهن . والتحول ، بدوره ، يمثل بالتأكيد التصور المرعب لاخلاقية الوضوح . ولكنه ايضاً نتاج تلك الدهشة التي لا حد لها والتي يشعر بها الانسان نحو ادراكه للوحش الذي يصيره بدون ان يبذل في ذلك مجهوداً . وفي هذا الغموض الجذري يكمن سر كافكا . وهذا التردد الدائم بـــين الطبيعي والاستثنائي ، بين الفردي والكوني ، بين المأساة والاعتيـــادية ، واللاجدوى والمنطقي ، يظهر في اعماله ، وهو الذي يهبها نغمتها ومعناها . وهذه هي التعارضات التي يجب ان تُحصى وتتمود ، والمتناقضات التي يجب ان تعزز وتقوى من اجل فهم العمل اللاجدي .

والرمز ، حقاً ، يتخذ مستويين ، عالمين للافكار والأحاسيس ، وقاموساً

للمراسلات بينهما . وهذا القاموس هو اصعب الأمور . ولكن التيقظ الى العالمين اللذين يواجه أحدهما الآخر يسمو الى منزلة العثور على رأس الخيط في علاقتهما الخفية . وعند كافكا ، نجد ان هذين العالمين هما عالم الحياة الاعتيادية من ناحية . ومن الناحية الاخرى ، عالم القلق فوق الطبيعي [1]. ويلوح اننا نشهد هنا استفادة لا نهاية لها من ملاحظة نيتشه : « المشاكل العظيمة في الشارع » .

هنالك في الوضعية البشرية (وهـذا هو أمر مألوف في كل الآداب) لا جدوى أساسية بالاضافة الى النبل الصامد الثابت . ويحدث الاثنـان معاً ، كما هو طبيعي . ويتم تمثيل الاثنين معاً ، دعني اكرر ، في الانفصال المضحك الذي يفرق بين افراطنـا الروحي وبين غبطات الجسد قصيرة العمر . والشيء اللاجدي هو ان روح هـذا الجسد هي التي يجب ان تخضع لذلك التفوق اللاطبيعي المفرط . وكل من يريد ان يصور هـذه اللاجدوى يجب ان يعطيهـا الحياة في سلسلة من التعارضات المتعـادلة المتوازية . وهكذا فان كافكا يعبر عن المأساة بالاعتيادي اليومي ، وعن اللاجدوى بالمنطقي .

والممثل يهب قوة اكثر للشخصية التي تمثل المأساة كلمـا اهتم اكثر

---

(١) يجدر بي ان الاحظ هنا ان اعمال كافكا يمكن ان تفسر بصورة مشروعة ايضاً باعتبارها نقداً اجتماعياً (كما هو الامر في « المحاكمة » مثلاً) . واكثر من ذلك ، فمن المحتمل انه لا حاجة هنالك تدعو الى الاختيار ، فالتفسيران ممتازان ، وبالمعنى اللاجدي ، كما رأينا ، تكون الثورة ضد البشر موجهة ايضاً ضد الله : لأن الثورات العظيمة هي دائماً ميتافيزيكية .

بعدم المبـــالغة . واذا كان معتدلاً ، فان الرعب الذي سيوحي به لن يكون معتدلاً . وفي هذا الصدد ، نجد ان المأساة الاغريقية غنية بالعظات . فالمصير يحظى بالفهم في العمل الذي يصور المأساة اكثر فأكثر كلما كان ذلك تحت ستار المنطق والطبيعية . ومصير اوديب يعلن مقدماً ، ويتم بدواعٍ فوق طبيعية تقرير انه سيرتكب القتل والزنى . وينصب مجهود الدراما كله في اظهار النظام المنطقي الـذي سيتوج سوء حظ البطل ، من استنتاج الى استنتاج آخر . والحق ان اعلان ذلك المصير غـــير الاعتيادي لنـــا هو أمر غير مرعب ، لأنه غير محتمل . بيد انه اذا تم الكشف عن ضرورته لنا في اطار الحياة اليومية الاعتيادية ، والمجتمع ، والدولة ، والعاطفة المألوفة ، فان الرعب يتسع . وفي تلك الثورة التي تهز الانسان وتجعله يقول : « ليس ذلك ممكنـــاً » ، هنالك عنصر من اليقين اليائس الذي يقول بأن « ذلك » يمكن أن يكون .

وهذا هو كل سر المأساة الاغريقية ، او سر واحد من مظاهرها على الأقل . لان هنالك سراً آخر سيساعدنا ، بطريقة عكسية ، في فهم كافكا فهماً أفضل . فالقلب البشري يميل ميـــلا مضجراً الى ان يطلق تسمية المصير على ما يسحقه فقط . ولكن السعادة ، كذلك ، وبطريقتها ، هي بلا سبب ، طالما انها حتمية . والانسان الحديث ، على كل حـــال ، يعتبر نفسه مصدرها حين لا يفشل في رؤيتها . وبالعكس ، فيمكننـــا ان نقول الكثير عن مصائر المأساة الاغريقية ، تلك المصائر الممتازة ، واولئك الذين يحاطون بالامتيازات في الاساطير ، مثل يوليسيس ، اذ نجدهم يُنقَذون من انفسهم وسط أشد المغامرات هولاً . فلم تكن العودة الى ايثاكا سهلة هكذا .

وما يجب علينا ان نتذكره في اية حالة هو تلك المشاركة الخفية التي تربط بين المنطقي والاعتيادي وبين ما هو مأساة. ولهذا السبب فان سامسا ، بطل « التحول الشخصي » هو بائع متجول وهذا ايضاً هو السبب في ان الأمر الوحيد الذي يقلقه في المغامرة الغريبة التي تحوله الى حيوان طفيلي هو ان رئيسه سيغضب لغيابه. تنمو السيقان والمجسات ، ويتقوس عموده الفقري ، وتظهر بقع بيضاء على بطنه ، و — لن اقول ان هذا لا يدهشه ، لأن التأثير سيفسد — لكن ذلك يسبب له « ضيقاً بسيطاً » .
وفن كافكا كله يتميز بهذا. وفي كتابه الرئيسي « القلعة » تنهض تفاصيل الحياة اليومية بارزة ، ومع ذلك ففي تلك القصة الغريبة التي لا ينتهي فيها شيء ، وانما تبدأ فيها الاشياء مرة أخرى ، نجد المغامرة الاساسية للروح الباحثة عن عطائها المقدس. وتلك الترجمة للمشكلة الى فعالية ، وترافق حدوث العام والخاص ملحوظان كذلك في الوسائل الصغيرة التي تخص كل خالق عظيم. وفي « المحاكمة » كان يمكن ان يسمى البطل شمدت او فرانز كافكا. ولكنه يسمى جوزيف ك. انه ليس كافكا ، ومع ذلك فهو كافكا. انه اوروبي اعتيادي. وهو كالآخرين. ولكنه ايضاً الكيان ك. الذي يمثل س في معادلة الجسد.

وكذلك ، فانه اذا اراد كافكا ان يعبر عن اللاجدوى فانه سيستخدم التماسك. وانت تعرف قصة الأحمق الذي كان يصطاد في حوض الحمام. وسأله دكتور يحمل افكاراً عن العلاج النفسي : « هل هي تعض على الطعم ؟ » وحصل على الجواب الخشن : « بالطبع لا ، ايها الأحمق ، طالما ان هذا هو حوض الحمام. » وهذه القصة تعود الى النمط الشاذ

المزوق ، ولكننا نستطيع ان نلمس فيها بوضوح تام الى اي حد ترتبط النتيجة اللاعجدية بالافراط في المنطق . وعالم كافكا هو في الحقيقة كون لا يمكن وصفه يسمح فيه الانسان لنفسه بالترف المعذب المتمثل في الاصطياد في حوض الحمام ، عالماً بأنه لا شيء سينتج من ذلك .

وبالتالي ، أرى هنا عملا لا مجدياً في مبادئه . أما بالنسبة « للمحاكمة » مثلا فانني استطيع حقاً ان اقول انها نجاح كامل . فالجسد يفوز ، ولا شيء يعوزه ، لا الثورة اللامعبر عنها ، (وانما هي التي تكتب) ، ولااليأس الواضح الصامت (وانما هو الذي يخلق) ، ولا تلك الحرية المدهشة في الطريقة ، تلك الحرية التي يمثلها الاشخاص حتى موتهم النهائي .

* * *

ومع ذلك فان هذا العالم ليس مغلقاً كما يلوح . ففي هذا الكون الخالي من التقدم ، سيقدم كافكا الأمل بشكل غريب . وفي هذا الصدد فان « المحاكمة » و « القلعة » لا تتبعان عين الاتجاه . وانما تكمل احداهما الاخرى . والاستمرار المحسوس بصورة ضعيفة ، الذي يحدث من واحدة نحو الاخرى يمثل فتوحاً هائلا في دنيا التجنب . « فالمحاكمة » تمعن التأمل في مشكلة نجد أن « القلعة » الى حد ما تحلها . فالاولى تصف طبقا لطريقة شبه علمية وبدون ان تستنتج . والثانية ، الى حد ما تفسر . « المحاكمة » تصف الاعراض ، بينما تصف « القلعة » العلاج . ولكن الدواء المقترح هنا لا يشفي . انه فقط يعيد المرض الى الحياة الاعتيادية . انه

يساعد على قبوله . وهو بمعنى معين ، (دعنـــا نفكر في كيركفارد) يجعل الناس يحتفظون به باعـتزاز . فمساح الاراضي ك لا يستطيع ان يتصور قلقاً آخر غير القلق الذي يعذبه . والنـاس المحيطون به انفسهم يصبحون متصلين ومرتبطين بذلك الخواء وذلك الالم الذي لا اسم له ، وكأن المعاناة اتخذت في هذه الحالة مظهراً ممتـازاً . تقول فريدا لـ ك : « كم احتاج اليك ، وكم اشعر بالوحدة ، منـــذ عرفتك ، حين لاتكون معي . » وهذا العلاج البارع الذي يجعلنا نحب ما يسحقنا ويجعل الأمل ينبثق في عالم بلا حصيلة ، هذه « القفزة » المفاجئة التي يتغير أثناءها كل شيء ، هي سر الثورة الوجودية وسر « القلعة » نفسها .

مؤلفات قليلة جداً يمكن ان تفوق « القلعة » في قوة تطوراتها . يعين ك مساحاً للاراضي للقلعة ، وهو يصل الى القرية . ولكن من الصعب الاتصال بين القرية والقلعة . ويستمر ك خلال مئات الصفحات في البحث عن طريقه . ويقوم بكل وسيلة ، ويستخدم كل حيـــلة واجراء ، ولا يغضب ، ويحاول بنية حسنة لا مكترثة ان يقوم بالاعباء المعهودة اليه . وكل فصل جديد هو خيبة جديدة ، وكذلك بداية جديدة . فالامر ليس منطقيا ، وانما هو طريقة متماسكة . ويؤلف مدى ذلك الاصرار صفة العمل المشبعة بالمأساة . وحين يتلفن ك الى القلعـــة ، يسمع اصواتا مضطربة ممتزجة ، وضحكات غامضة ، ودعوات بعيدة . ويكفي هذا ليطعم أمله ، كتلك العلامات القليلة التي تظهر في سماء الصيف أو تلك البوادر المسائية التي تؤلف سبب العيش بالنسبة لنا . وهنا نجد سر السوداوية المألوفة في كافكا ، وهذا هو نفسه الذي نجده في الحقيقة عند بروست او في مناظر

بلوتينوس : حنين كئيب الى فردوس مفقود . وتقول أولغـا : « اصبحت حزينة جداً حين اخبرني بارناباس في الصباح بانه ذاهب الى القلعة : تلك الرحلة التي يحتمل ان تكون تافهة ، ذلك اليوم الذي يحتمل ان يكون مضيعاً ، ذلك الأمل الذي يحتمل ان يكون خاوياً . » « يحتمل » – وفي هذا المضمون يقامر كافكا بكل عمله . ولكن لا شيء يجدي ، والبحث عن الابدية هنا دقيق في تفاصيله . وتلك الشخوص الاوتوماتيكية الملهمة ، شخوص كافكا ، تقدم لنا صورة دقيقة عمـا يجب ان نكون عليه اذا كنـا محرومين من الامور التي تحول انتباهنا[1] ، مستسلمين تمامـاً لمهانة المقدس .

ونجد في « القلعة » ان ذلك الاستسلام لليومية العادية يصبح اخلاقية . وأمل ك. الكبير هو ان يجعل القلعة تتبناه . ولمـــا كان غير قادر على تحقيق ذلك وحده ، فان جهوده كلها تتجه الى استحقاق هذا العطاء بان يصبح من سكان القرية ، بان يفقد صفة الاجنبي ، تلك الصفة الــتي يجعله الجميع يشعر بها . انه يريد شيئاً يشغله ، حرفة ، وبيتاً ، وحيـاة رجل صحيح عادي . انه لا يستطيع ان يحتمل جنونه اكثر ممـا فعل . وهو يريد ان يكون معقولاً . انه يريد ان يستبعد اللعنة الخاصة الـتي تجعله غريباً بالنسبة للقرية . وحادثة فريدا ذات مغزى في هذا الصدد ، لأنه

---

(١) يلوح في « القلعة » ان « الامور التي تحول الانتباه » بالمعنى الباسكالي تتمثل في المساعدين الذين « يحولون انتباه » ك عن قلقه . ولو صارت فريدا عشيقة احد المساعدين ، فذلك لانهـــا تفضل مظاهر المسرح على الحقيقة ، والحياة اليومية الاعتيادية على العذاب المشترك .

اذا اتخذ من هذه المرأة التي تعرف واحداً من موظفي القلعة عشيقة له ، فان ذلك هو بسبب ماضيها . انه يستمد منها شيئاً يفوقه هو - في الوقت الذي يعي فيه ما يجعلها غير جديرة بالقلعة . وهـــذا يجعل المرء يفكر في حب كيركغارد الغريب لريجينا اولزن . ففي بعض الرجـــال تكون نار الابدية التي تحرقهم عظيمة عظمة تكفيهم ليحرقوا فيها قلوب اقرب الناس اليهم . والخطـأ القاتل الذي يتألف من اعطاء الله مـا هو ليس راجعاً لله هو كذلك موضوع هذه الحادثة في « القلعـــة » . ولولا كافكا للاح ان هذا ليس خطأ . انها عقيدة و « قفزة » ، وليس هنالك شيء ليس راجعاً لله .

واعظم مغزى من ذلك ان مساح الاراضي يقطع علاقته بفريدا لكي يذهب الى الشقيقات بارناباس . لأن عائلة بارناباس هي العائلة الوحيدة في القرية التي تخلت عنها القلعة والقرية نفسها . لقد رفضت اماليا ، الشقيقة الكبرى ، الاغراض-المخجلة التي ارادها منها احد موظفي القلعة . وقـد طردتها اللعنة اللااخلاقية التي تبعث ذلك نهائياً من حب الله . ان عدم القدرة على فقدان الشرف من اجل الله امر مماثل لجعل المرء نفسه غـير جدير بنعمته . وانت ترى هنا فكرة مألوفة بالنسبة للفلسفة الوجودية : الحقيقة المعاكسة للاخلاق . وهنا تكون الاشياء أبعد مدى . لأن الطريق الذي يتبعه بطل كافكا من فريدا الى الشقيقات بارناباس هو الطريق نفسه الذي يؤدي من الثقة بالحب الى تأليه اللاجدوى . وهنا ايضاً يوازي فكر كافكا فكر كيركغارد . ولا يدهشنـــا ان « مسألة بارناباس » موضوعة في نهاية الكتاب . ومحاولة مساح الاراضي الاخيرة هي ان يستعيد الله بواسطة

ما ينقبه ، ان يميزه ، ليس بواسطة تصنيفاتنا عن الطيبة والجمال ، وانما خلف المظاهر الخاوية المقرفة ، مظاهر لا اكتراثه ، ولا عدالته ، وكراهيته. وذلك الغريب الذي يطلب من القلعة ان تتبناه هو في نهاية سفرته منفي اكثر قليلاً لأنه في هذه المرة غير مخلص لنفسه ، قد تخلى عن الاخلاقية ، والمنطق . والحقائق العقلية لكي يحاول ان يدخل ، مسلحاً بامله المجنون فقط ، صحراء النعمة المقدسة [1].

* * *

وكلمة « الامل » المستخدمة هنا ليست مضحكة . بالعكس ، فكلما ازدادت مأساة الوضعية التي يصفها كافكا ، زاد ثبات وتحرش هـــذا الامل . وكلما ازدادت لاجدوى « المحاكمة » حقـــاً ، زادت مشروعية واحتدام « القفزة » التي تتجلى في « القلعة » . ولكننا نجد هنا ايضاً في حالة نقية تعارض الفكر الوجودي كما يعبر عنه كيركغارد مثلاً : « يجب قتل الامل الارضي، لأنه حينذاك فقط يتم انقاذ المرء بالامل الحقيقي » [2] ، ويمكننا ان نترجم هذا الى : « يجب على المرء ان يكتب « المحاكمة » لكي يضطلع « بالقلعة » . »

---

(١) يصح هذا فقط على النسخة غير المنهية من « القلعة » التي خلفها كافكا لنا . ولكننا نشك في ان الكاتب كان سيدمر في الفصول الاخيرة وحدة النغمة في روايته .

(٢) نقاء القلب .

كان معظم اولئك الذين تحدثوا عن كافكا قد عرفوا اعماله بانها نداء يائس ، دون ان يكون للانسان ما يمكنه ان يلجأ اليه . ولكن هـذا يستدعي اعادة النظر . هنالك أمل وأمل . ويلوح لي نتاج هنري بوردو التفاؤلي غير مشجع بصورة غريبة . ويرجع هذا الى انه ليس فيه شيء لمن يقوم بالتمييز . ومن الناحية الاخرى ، فـان فكر مالرو متشبث متمسك دائماً . بيد انه في هذين الاتجاهين لا ينتج الامل نفسه ولا اليأس نفسه شيئاً ، وانما ارى فقط ان العمل اللاجدي نفسه قـد يؤدي الى اللاايمان الذي اريد ان اتجنبه . والعمل الذي لم يكن غـير تكرار لا نتيجة له لوضعية عقيمة ، وتمظهر واضح لما هو قصير العمر ، يصبح هنا مهداً للاوهام . انه يفسر ، وهو يعطي الامل شكلاً . ولا يكون في وسع الخالق بعد ان يفصل نفسه عنه . انه ليس اللعبة المتصفة بالمأساة التي كان سيكونها . انه يعطي معنى لحياة المؤلف .

وعلى اي حال فمن الغريب الاعمال التي تتصف بعلاقـة مترابطة في موحياتها ، كاعمال كافكا وكيركفارد وجيستوف – باختصار ، اعمـال الروائيين والفلاسفة الوجوديين الذين ينظرون باتجاه اللاجدوى ونتائجها – تؤدي ، في المدى البعيد ، الى ذلك النداء الهائل للامل .

انهم يعانقون الله الذي يستنفدهم . ولا يدخل الامل الا عبر الخضوع ، لأن لا جدوى هـذا الوجود تؤكد لهم اكثر قليلاً من الواقع فوق الطبيعي . فاذا كان اتجاه هذه الحياة يؤدي الى الله ، فان هنالك حصيلة ما . والاستمرار المصر ، والثبات ، الذي يكرر به ابطال كيركفارد

وجيستوف وكافكا نهجهم الحياتي هو الضمان الخاص للقوة الصاعدة التي يتميز بها ذلك اليقين[1] .

ان كافكا ينكر على الهة النبل الاخلاقي والدليل والفضيلة والتماسك، ولكن الافضل فقط هو ان يرتمي بين ذراعيه . فقد تمت رؤية اللاجدوى، وقبولها ، واستسلم الانسان لها ، بيد انه منذ ذلك الحين فصاعداً صرنا نعرف انها لم تعد لا جدوى . ففي حدود الوضعية البشرية ، اي أمل هنالك أعظم من أمل الخلاص من تلك الوضعيـــة ؟ انني لا ارى مرة اخرى ان الفكر الوجودي ، في هذا الصدد (بعكس الرأي السائد) يغرق في امل واسع . انه الأمل نفسه الذي الهب العالم القديم اثنـــاء انتشار المسيحية والانباء السارة . ولكن في تلك القفزة التي يتميز بها الفكر الوجودي كله ، وفي ذلك الاصرار ، في ذلك القياس لقدسية لا سطح لها ، كيف لا يستطيع المرء ان يرى علامـــة وضوح يتبرأ من نفسه ؟ يتم الادعاء فقط بان هذا هو الكبرياء التي تتخلى عن نفسها لتنقذ نفسها . ويمكن ان يكون مثل هذا التبرؤ خصباً مثمراً ، ولكن هـذا لا يغير شيئاً من ذلك . ولا تستطيع القيمة الاخلاقيـة للموضوع ان تتقلص في نظري بمجرد وصفها بانها عقيمة ككل كبرياء . لأن الحقيقـة ايضاً ، بتعريفها نفسه ، عقيمة . الحقائق كلها عقيمة . وفي العـالم الذي يتم فيه اعطاء كل شيء ، ولا يفسر فيه شيء ، يكون خصب قيمة ما

---

(١) الشخصية الوحيدة بدون امل في « القلعة » هي اماليـــه . انها الشخصية التي تتعارض معها شخصية مساح الاراضي باشد العنف .

او ميتافيزيك ما مفهوماً خالياً من المعنى .

وعلى اي حال ، فانت ترى هنا في اي تقليد فكري يأخذ نتاج كافكا مكانه . وانه ليكون من الذكاء حقاً اعتبار الاستمرار الذي يقود « المحاكمة » الى « القلعة » حتمياً . فجوزيف ك ، ومساح الأراضي ك هما في الحقيقة قطبان يتجاذبان كافكا [1] . وسأتحدث مثله فأقول ان نتاجه قد لا يكون مجدياً . ولكن ذلك يجب ان لا يمنعنا من رؤية نبله وعموميته . انهما ينبثقان من كونه قد نجح في تصوير الممر اليومي الاعتيادي من الأمل الى الأسى ومن الحكمة اليائسة الى العمى العقلي . فنتاجه عام (والنتاج اللامجدي حقاً هو غير عام) الى الحد الذي يصور به وجه الانسان المتحرك عاطفياً وهو يهرب من البشرية ، مستمداً من تناقضاته اسباباً للايمان ، اسباباً للامل من يأسه الخصب ، مسمياً الحياة تدربة القتال على الموت . انه عام لان وحيه هو ديني . وكما هو الامر في كل الاديان ، يتحرر الانسان من عبء حياته هو . ولكنني اذا كنت اعرف ذلك ، واذا كان في وسعي ان اعجب به ايضاً ، فانني اعرف ايضاً انني لست ابحث عما هو عام ، وانما عما هو حقيقي . وقد لايترافق حدوث الاثنين معاً .

ويمكننا ان نفهم هذه النظرة الخاصة بصورة افضل اذا قلت ان الفكر الذي لا يأمل حقاً يحدث ان يكون معرفاً بالمقياس المضاد ، وان

---

(١) قارن ، بشأن مظهري فكر كافكا ، بين «في مستعمرة الجزاء» التي نشرتها مجلة — كتب الجنوب — : « الجريمة (والمفهوم — جريمة الانسان) غير مشكوك فيها قط » ، وبين قطعة في « القلعة » — تقرير موموس : « ان جريمة مساح الاراضي ك صعبة التعيين » .

النتاج الحافل بالمأساة قد يكون النتاج الذي ، بعد ان يتم نفي كل أمل في المستقبل ، يصف حياة انسان سعيد . وكلما كانت الحياة مثيرة اكثر ، زادت لا جدوى فكرة فقدانها . ولعل هذا هو سر الاقفرار الفخور الذي نلمسه في نتاج نيتشه . وفي هذا الصدد ، يلوح نيتشه الفنان الوحيد الذي استمد النتائج المتطرفة لجمالية اللاجدوى ، بقدر ما تكن رسالته الأخيرة في وضوح غلاب عقيم ونفي عنيد لاية تعزية فوق طبيعية .

ويجب ان يكون ما ذكرته كافياً لابراز كل اهمية كافكا في اطار هذا البحث . فنحن هنا مسوقون الى حدود الفكر البشري . وبالمعنى الاتم للكلمة ، يمكن القول بان كل شيء في ذلك النتاج اساسي . وعلى اي حال ، نجد انه يمعن التأمل في مشكلة اللاجدوى كلها . واذا اراد المرء ان يقارن بين هذه الاستنتاجات وملاحظاتنا الاولى ، المحتوى مع الشكل المعنى الخفي في « القلعة » مع الفن الطبيعي الذي تصاغ فيه ، وبحث ك المتحمس الفخور مع مظاهر الحياة اليومية الاعتيادية التي يحدث ذلك البحث فيها ، فسيدرك ما يمكن ان يكون عظمتها . لانه اذا كان الحنين الغامض الكئيب علامة البشرى ، فلعله لم يعط احد مثل هذا الجسد والحجمية لاشباح الندم هذه . ولكننا سنرى في الوقت نفسه اي نبل استثنائي يدعو اليه النتاج اللاجدي ، ولكنه ربما لا يكون موجوداً هنا . فاذا كانت طبيعة الفن هي ان يربط بين العام والخاص ، بين الابدية القصيرة لقطرة من الماء وانعكاس اضوائها ، فانه ليكون اكثر صحة ان نحكم على عظمة الكاتب اللاجدي بالمسافة التي يستطيع ان يقدمها بين هذين العالمين . فسره يتألف من استطاعته ان يجد النقطة المضبوطة حيث يتقابلان في اعظم لا تناسبها .

ولكي نقول الحق ، فان هذا الموضع الهندسي الدقيق للانسان وللابشري يمكن ان يراه في كل مكان نقاء القلب . فاذا كان فاوست ودون كيشوت من المخلوقات الفنية البارزة ، فان هذا يرجع الى النبل الذي لا حد له ، الذي يشيران اليه بايديهما الأرضية . ومع ذلك ، تأتي لحظة دائماً ، ينفي فيها الذهن الحقائق التي تستطيع تلك الايدي ان تلمسها . تأتي لحظة لا يؤخذ فيها الخلق على انه مأساة ، وانما يؤخذ مأخذاً جاداً فقط . ثم يهتم الانسان بالأمل . ولكن هذا ليس من شؤونه ، وانما ينحصر اهتمامه في النكوص عن الزيف والأعذار الكاذبة . ومع ذلك فهذا بالضبط هو ما أجده في نهاية الاتهامات العنيفة التي يتقدم بها كافكا ضد الكون كله . فحجته التي لا يمكن تصديقها تتمثل في هذا العالم المقوت المقلق الذي نجد فيه الذرات نفسها تجرؤ على الأمل [1] .

---

(١) قدمت هنا تفسيرا لنتاج كافكا ، ولكن من العدل فقط ان نضيف انه لا شيء هنالك يمنعنا من بحثه . بصرف النظر عن اي تفسير ، من وجهة نظر جمالية صرفة . فنجد مثلا ان ب . غروبثويسن في مقدمته الممتازة « للمحاكمة » يحدد نفسه ، بحكمة اشد مما فعلنا ، بتتبع التصورات المؤلمة لما يسميه ، تسمية مثيرة ، بالحلم في يقظة . فمصير ذلك النتاج ، وربما عظمته انه يقدم كل شيء ولا يثبت شيئاً .